العمران في المغرب الإسلامي

ماستر1 إسلامي

- العمران عند بعض المفكرين المسلمين
- ضوابط إنشاء المدن الإسلامية
- نماذج من المدن الإسلامية:

الكوفة

القيروان

تيهرت

فاس

بجاية

- تخطيط المدن (خرائط):

المدينة المنورة/ الكوفة/ القيروان/ تونس/ فاس/ تلمسان/ قرطبة/ إشبيلية/ مالقة

- المساجد: النبوي/ الأموي/ الكوفة/ القدس/ الزيتونة/ القيروان/ قرطبة

مسجد القيروان أنموذجا

- المدارس (المغرب الأقصى/ الأدنى/ الأوسط)
- المساكن
- الفنادق
- الحمامات
- البيمارستانات
- المواجل والقناطر
- الأبراج
- الأسوار
- القلاع

العمران والعمارة عند بعض المفكرين المسلمين:

لقد ظهرت المدينة منذ العصور القديمة على أنها تجمع بشري يشغل فضاءً معينا وتحكمه قوانين وضوابط تحافظ على استقراره واستمراره في شتى مجالات الحياة، ولا تزال المدينة كذلك إلى وقتنا الحاضر، وتختلف نظرة دارسي المدينة لاختلاف مناهجهم وجوانب دراستهم، فعالم الاجتماع ينظر لها من زاويته وعالم النفس يدرسها من وجهة نظره وعالم التاريخ يستقرؤ ماضيها وحاضرها وعالم الآثار يهتم بمبانيها وعمارتها وغيرهم من الدارسين، وباجتماع هذه الدراسات نحصل على نظرة متكاملة لمفهوم المدينة، ونسعى من خلالها للوصول إلى المدينة الفاضلة.

يمكن أن نُعرِّف المدينة في الإسلام بأنها المكان الذي تستوفي فيه أسباب العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر لكونها المقر المركزي للسلطة الحاكمة، سواءً الخليفة في الدولة أو الوالي في الأقاليم ".

ويتلخص من هذا أننا لا نستطيع أن نقول على مكان معين أنه مدينة إلا إذا توفرت فيه عدة شروط، منها المرافق الضرورية للمدينة من مساكن وأسواق ومسالك وغيرها، كما يجب توفره على أسباب الاستقرار من إقامة العدل والأمن وغيره الذي يقوم برعايته الخليفة أو الحاكم.

ضوابط إنشاء المدن:

إن المتتبع لنظام العمران في المدن القديمة يلحظ أنه قام وفق شروط محددة في جل المدن، وذلك ما يفسره التشابه الكبير في نظامها المعماري وتخطيطها، وهذا الأمر إنما جاء للضوابط والشروط التي حددها مفكرو الإسلام من أمثال ابن أبي الربيع والقزويني وابن خلدون وابن الأزرق وغيرهم، وهم بدورهم إنما استنبطوها من عدة أحاديث نبوية منها على سبيل المثال لا الحصر قول النبي صلى الله عليه وسلم:"**لا ضرر ولا ضرار**"، وحديث "**إذا اختلفتم في**

الطريق جعل عرضه سبعة أذرع" وغيرها من الأحاديث، وهي التي تجعل الفرد يتقيد بهذا النظام ويلتزم به.

وفي هذا الصدد يقول عبد الباقي إبراهيم:"والمتتبع لحركة التغيير التي ظهرت في بداية صدر الإسلام يلاحظ أن الأساس فيها هو البناء العمراني للمدينة، فلم يهتم الرسول صلى الله عليه وسلم كغيره من الحكام بالعمارة والعمران كاهتمامه ببناء الإنسان الذي هو أساس بناء المجتمع ومن ثم بناء العمران".

ويضيف في موضع آخر:" وإذا قلنا أن المدينة الفاضلة هي المدينة التي يحيا سكانها الحياة الإسلامية الصحيحة، فإن البناء العمراني لهذه المدينة سوف يَعكِس تلقائيا صفات المدينة الفاضلة في العمارة والتخطيط، فقد كانت **المدن على مر العصور** هي **المرآة** التي ينعكس على وجهها المعماري كل الخصائص الثقافية والاجتماعية والاقتصادية أو المقومات الحضارية لسكانها ... **فبناء المدن** ليس فقط **بالأحجار والأخشاب** والطرق وشبكات المرافق بقدر ما هو **بالقيم والمبادئ** "، ويفهم من هذا أن بناء الإنسان على المبادئ السليمة والقيم الراقية هو أصل بناء المدينة المتحضرة.

بخصوص معنى المدينة والعمران، فإن الإنسان لمّا كان مُفْتقِر إلى أمور غير مستغن عنها وهي:

الغذاء: يجعله خلفا لما تحلل من بدنه بالحركة والرياضة.

اللباس: ليدفع عن نفسه ألم الحر والبرد والرياح.

المسكن: ليصون نفسه ويحرصها من تطرق الآفات.

الزواج: لبقاء نوعه.

العلاج: لتَغيُّر الكيفيات التي فيه، ولِما يناله من تفرق الاتصال.

احتاج الإنسان حينئذ إلى الصنائع والعلوم التي تعمل بها هذه الأشياء، ولمّا كان الإنسان الواحد لا يمكنه أن يعمل الصنائع كلها افتقر بعض الناس إلى بعض، وبحاجة بعضهم إلى

بعض اجتمع كثير منهم في موضع واحد وعاون بعضهم بعضا في المعاملات والإعطاء، فاتخذوا المدن لينال بعضهم من بعض المنافع عن قرب، وهذا هو معنى العمران.

بعد أن تقرر بأن الاجتماع الإنساني ضرورة طبيعية؛ حدد مفكروا الإسلام المواضع التي يمكن أن يستقر بها الإنسان، فليست كل المواضع في الأرض صالحة للتعمير والمسكن ولا كل بقعة في كل موضع تصلح لذلك أيضا، وإنما حدد هؤلاء العلماء مواضع معينة تليق بالاستقرار لاستمرار الحياة.

ابن خلدون لما تكلم عما يجب مراعاته في **أوضاع المدن** ركز على ثلاثة أمور وهي: دفع المضار وجلب المنافع وتسهيل المرافق، دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، وقال القزويني بأن الناس بعد اجتماعهم اتخذوا السور والخندق والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار.

ثم إن الملوك من الأمم الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل **ناحية** في البلاد وأفضل **مكان** في الناحية و**أعلى** منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال.

وفي هذا الصدد يذكر ابن أبي زرع أن الحكماء رأوا بأن أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان؛ إذ به صلاح حالها وأمن سبيلها وكف جبابرتها.

وعلى هذا فقد حدد ابن أبي الربيع ستة شروط لاختيار الموضع لإنشاء مدينة وهي كالتالي:

1- سعة المياه المستعذبة، وذلك بأن تكون قرب نهر أو بها آبار وعيون بحيث يأخذ الناس حاجاتهم من الماء عن قرب.

2- إمكان الميرة المستمرة، والميرة هي الطعام الذي يجمع للسفر ونحوه، وهو هنا بمعنى كل ما يصلح للادخار ويكون بالكثرة بحيث لا يحتاج أهلها إلى جلبه من مكان آخر، واعتبر بما ذكر في سورة يوسف(الآية65) فإن مصر توفر فيها آنذاك هذا الشرط أما بلد يعقوب عليه السلام فلسطين فغاب عنها هذا الشرط مما اضطرهم للخروج للبحث عن الميرة.

3- اعتدال المكان وجودة الهواء، وهو شيء مهم لحياة الكائن الحي حتى لا تصيبه الأمراض.
4- القرب من المراعي والاحتطاب، لأن عيش الأقدمين إنما كان على الدواب يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها ويركبون ظهورها، فوجب توفير المراعي لها، وأيضا الاحتطاب لاستعماله في البناء والتدفئة والطهي.
5- تحصين المنازل من الأعداء والذُّعار، بأن تكون لها أبواب متينة وأيضا تكون أسوارها قوية ومرتفعة، بل لقد وجدت بعض الأحياء في المدينة الإسلامية بأبواب تغلق عليها وهي ما تسمى بالدروب وهذا أيضا يعد من التحصين.
6- أن يحيط بهم سور، فيجمع كل السكان بداخله بحيث لا يؤخذوا على غفلة وإذا كان السور حصينا متينا سميكا فهذا أكثر أمنا وأمانا.

كما حدد ابن أبي الربيع أيضا شروط التقسيم الداخلي للمدن بثمانية وهي كالتالي:
1- أن يسوق إليها الماء العذب للشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف، كما رأينا هذا من قبل.
2- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق، حتى يسهل على الناس التنقل بحرية، كما يسهل أيضا على الدواب المحملة السير والتقاطع بحرية دون أن تتصادم، والمسالك في المدينة على أنواع منها الكبيرة ومنها المتوسطة ومنها الصغيرة، فالكبيرة كالمحاج أو المحجات والشوارع والطرق، والمتوسطة كالأزقة والزنقات، والصغيرة كالروائغ والدروب، ولعل الواجب أن يكون عرض الطريق في المدينة سبعة أذرع(حوالي 3,50م) مصداقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم.
3- أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها، وهنا نفرق بين الجوامع ومساجد الأحياء، فقد وجد في المدن الإسلامية في الغالب مسجد جامع واحد وعدة مساجد أحياء بحيث أن كل حي له مسجده الخاص به ويجتمعون كلهم في المسجد الجامع أو الجامع لتوحيد الأفكار والرؤى والصفوف.

4- أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، فالأصل في المدن الإسلامية الأولى أن السوق كان له فراغ أمام المسجد الجامع ولما توسعت المدن ظهرت الأسواق المتخصصة في دروب خاصة بها.

5- أن يميز بين قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة، وذلك بأن يجعل كل قبيلة في حي خاص بها لها مساجد أحيائها ولها حوانيتها وأحيانا لها مقبرتها الخاصة بها، ويجمعهم المسجد الجامع، كما كان ذلك في المدن الأولى التي بناها المسلمون كالكوفة والقيروان.

6- إذا أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفا له سائر جهاته، فقد لا يأمن الإنسان ولا يطمئن إلا لقرابته وعشيرته والموالين له، بل أحيانا وُجد في بعض المدن قلعة أو حصن لمكان السلطان مع حاشيته داخل سور المدينة كتلمسان مثلا.

7- أن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة، ولا يبنى السور إلا بعد أن تستقر كل قبيلة في مكانها وتترك فراغات(رحاب) بينها لمن أراد السكن فيما بعد، أو لإمكانية اتساع المدينة، ثم يبني السور الذي يضم كل السكان.

8- أن ينقل إليها أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها، لأن الناس محتاجون لأهل العلم الذين يعلمونهم ويثقفونهم ويحكمون بينهم حين التنازع، كما أنهم محتاجون أيضا للصنائع للمأكل والملبس والسكن وما يقيم حياتهم، فإن لم يتوفر هذا فلا عبرة بسكنى المدينة، واعتبر ذلك بعواصم القرون الماضية فقد كان الناس يأتون إليها لطلب العلم ولطلب المعاش، بل هذا ما يزال إلى الآن في المدن الكبرى مقارنة مع القرى الصغيرة النائية.

ولنضرب أمثلة عن المدن التي أنشأها المسلمون ليتسنى معرفة تلك الضوابط التي حددها مفكروا الإسلام هل أخذت بعين الاعتبار أم لا؟

الكوفة:

الكوفة هي المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، وهي على ذراع من الفرات في غربيه، ويسميها قوم خد العذراء وسميت بالكوفة لاستدارتها، أخذا من قول العرب رأيت كوفانا، وقيل سميت بذلك لاجتماع الناس بها، وقيل الكوفة على حصباء ورمل، وكل حصباء ورمل هكذا مختلفين فهو كوفة، وقد بنيت الكوفة سنة 17هـ.

ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى سعد أن يبعث سلمان وحذيفة وكانا رائدا الجيش فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فاتجه كل منهما في جهة حتى التقيا عند منطقة الكوفة فارتضياها، وكانت بها ديرات ثلاثة دير حرقة ودير أم عمرو ودير السلسلة، وأبنية من الخوص بين ذلك، كما أن المسلمين شعروا بالحاجة إلى إنشاء دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة تكون بمثابة المعسكر والمركز للهجرة في الوقت نفسه، ثم إن القوم بنوا بالقصب ولما شب حريق بالكوفة واحترق فيه ثمانون عريشا، استأذن سعدٌ عمرَ بن الخطاب في البناء باللبن فقال:" افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة ".

كما أمرهم أن لا يرفعوا بناءً فوق القدر، قالوا وما القدر؟ قال:"ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد"، وأول شيء خط بالكوفة **المسجد**، ثم قام رجل شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن **يبني** وراء موقع ذلك السهم، وفعل ذلك في سائر جهات المسجد، وبنوا لسعد **دارا** بحياله، وبينهما طريق بعرض مائتي ذراع أي حوالي مائة 100 متر وجعل فيها **بيوت الأموال**، وأقيمت **الأسواق** في الساحة المجاورة للمسجد بغير بنيان، وقال عمر الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه، وكان هناك مكان اتخذ لمن يأتي للكوفة فيريد الاستقرار بها فينزل بهذا المكان حتى يقتطع له في المدينة مكان يليق به وكان الذي يقوم بهذا العمل أبو الهياج.

إذن فأول ما اختط بالكوفة المسجد الجامع في وسطها، ثم اختطت **الطرق** على حسب سعتها، فكانت الشوارع الرئيسية حوالي أربعين 40 ذراعا أي حوالي عشرين 20 مترا والتي

تتفرع عنها ثلاثون 30 ذراعا أي حوالي خمسة عشر 15 مترا، وما بين ذلك عشرون 20 ذراعا أي حوالي عشرة 10 أمتار، والأزقة والتي هي أصغر المسالك في المدينة سبعة 7 أذرع أي حوالي ثلاثة أمتار ونصف 3,5م، ثم بنت كل قبيلة في ناحية من نواحي المدينة، حيث كانت تحيط بالمسجد من جوانبه الأربعة، كما بني أمام المسجد قصر الوالي أو دار الإمارة، ويوجد السوق أمام المسجد كما وجدت هناك **الميادين والرحبات** وهي فضاءات مكشوفة تفصل بين الأحياء السكنية.

وبالنسبة للقبائل الساكنة بالكوفة والتي كانت تحيط بالمسجد من جهاته الأربع فكانت كالتالي، في الجهة الشمالية خمسة مناهج فنجد سليما وثقيفا مما يلي الصحن على طريقين، وهمذان على طريق وبجيلة على طريق آخر، وتميم اللات وتغلب على آخر، وفي الجهة الجنوبية جهة قبلة الصحن أربعة مناهج فنجد بني أسد على طريق وبين بني أسد والنجع وكندة طريق، وبين كندة والأزد طريق، وفي الجهة الشرقية ثلاثة مناهج فنجد الأنصار ومزينة على طريق، وتميما ومحاربا على طريق، وأسد وعامر على طريق، وفي الجهة الغربية للصحن ثلاثة مناهج فنجد بجالة وبجلة على طريق، وجديلة وأخلاطا على طريق، وجهينة وأخلاطا على طريق، فكان هؤلاء هم الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ووراء ذلك.

يقول الدكتور إبراهيم بن يوسف:"كانت هذه المناهج الخمسة عشر هي الطرق الرئيسية وكانت في البداية عبارة عن فواصل بين مجموعة الخيم كما رتب وضعها سعد رضي الله عنه، وكلها تنطلق من **مركز المدينة** وهو **المسجد الجامع**، أخذت بعد ذلك صور سكك عريضة وجعلوا وسط كل خطة **رحبة** فسيحة **لمرابط** خيلهم **ومقابر** موتاهم"، هكذا كانت الكوفة في بداية القرن الأول ثم تطورت تطورا كبيرا حيث ظهرت فيها المرافق العامة والخاصة فأصبحت مدينة عامرة يقصدها الناس من كل مكان.

إن هذا النظام الذي بناه المسلمون في بداية القرن الأول هجري لينم عن سياسة سديدة وعن بعد نظر مبني على ما استنبطه المسلمون من تاريخهم وما التزموه من مبادئ وقواعد مكتسبة من الإسلام، وإن نظرة خاطفة على هذه المدينة أثناء بنائها يجعلنا نستشف هذا التخطيط

الممتاز حيث الشوارع الواسعة والفضاءات بين الحي والآخر، والأحياء التي يشكل كل واحد منها مدينة مصغرة حيث أن أهل الحي الواحد تجمعهم رابطة الانتماء لقبيلة واحدة وبالتالي يعودون لأصل واحد وهم بالإضافة إلى ذلك متصاهرون، مما يجعل الفرد منهم ينضبط بقواعد القبيلة من المحافظة على مكارم الأخلاق والترابط والتلاحم وزجر كل من يحاول تغيير هذا النظام وهذا الرابط الاجتماعي المتكامل.

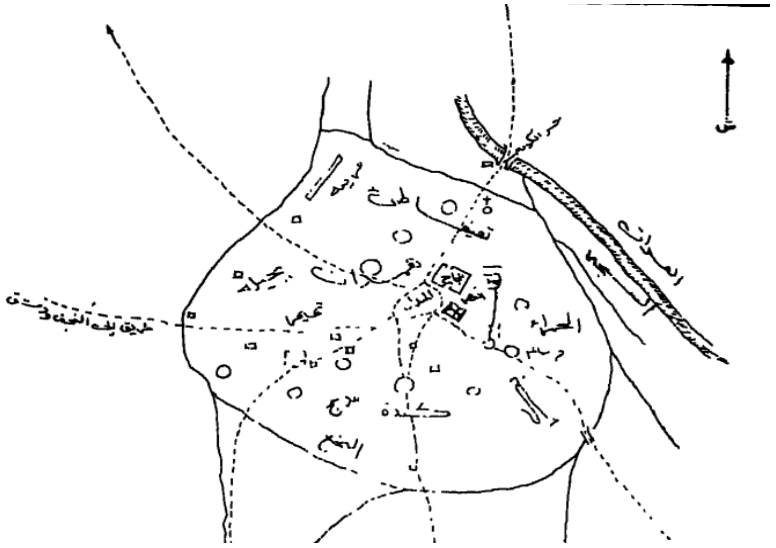

القيروان:

وهي أول مدينة إسلامية أنشأها المسلمون في المغرب العربي، وكان بناؤها على نفس التخطيط الذي كانت عليه الكوفة، ففي عهد الدولة الأموية وبالذات في خلافة معاوية بن أبي سفيان، أكمل عقبة بن نافع الفهري الفتوحات في إفريقيا واختط القيروان وذلك سنة خمسين 50هـ، واكتمل بناؤها سنة خمسة وخمسين 55هـ، وذلك كي تكون مركزا عسكريا يكملون منه الفتوحات في هذه المنطقة الصعبة.

ولعل في اختيار منطقة القيروان في سهلٍ بعيدٍ عن البحر وعن الجبال له سياسته أنذاك، إذ أن المسلمين لم يكن لهم أسطول قوي يجابهون به الأسطول البيزنطي، كما أن البربر الأشداء الذين لم يفهموا حقيقة الإسلام بعد كانوا يقطنون في الجبال ، لذلك كانت هذه المنطقة أفضل مكان لإقامة مدينة، لذلك لما أراد أصحاب عقبة أن تكون قرب البحر قال لهم:" إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينة ويهلكها..." وقال لهم عن البربر:" إن أهل إفريقية قوم إذا عضهم السيف أسلموا وإذا رجع عنهم عادوا

إلى دينهم ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا، لكن رأيت أن أبني ها هنا مدينة يسكنها المسلمون".

وبدؤوا بناء المدينة وحسب الطريقة التي انتهجت في الكوفة والبصرة والفسطاط فقد بني المسجد الجامع ودار الإمارة ثم قسمت الأرض المحيطة على القبائل لبناء منازلهم وبناء المساجد الخاصة، كما شقت الشوارع في المدينة منها الكبيرة والأقل منها حتى نصل إلى الأزقة والدروب، وهي بهذا لم تخرج على النظام الذي رأيناه في الكوفة، أما السوق فقد كان بدوره بجوار المسجد الجامع كما ظهرت أسواق متخصصة، وقد روعي في وضع الخطط **عدم جعل أضداد من القبائل في المحلة الواحدة**.

وكانت القيروان أخلاطا من الناس منهم القرشيين ومن سائر بطون العرب، وبها أنصاف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها من عمال بني هاشم من الجند، وبها عجم من عجم البلد من الروم وبها البربر، وقد نزل كل قوم في محلة خاصة بهم ووجدت عدة رحبات، ونزل قوم من فهر بالجهة الشمالية من الجانب وبنوا مساكنهم واتخذوا حولها البساتين وعرف هذا المكان بمنازل الفهريين أو حي الفهريين، وهم قوم عقبة ورهطه، وهناك في القيروان حارة يَحصُب وحارة بني نافذ ورحبة الأنصار ورحبة القرشيين ، وقد يسمى المكان باسم أحد الأعيان من المهاجرة مثل درب المغيرة ودرب الأزهر ودرب أم أيوب، وبالجملة فإن نظام بناء القيروان اتبع نفس تخطيط المدن المنشأة قبلها.

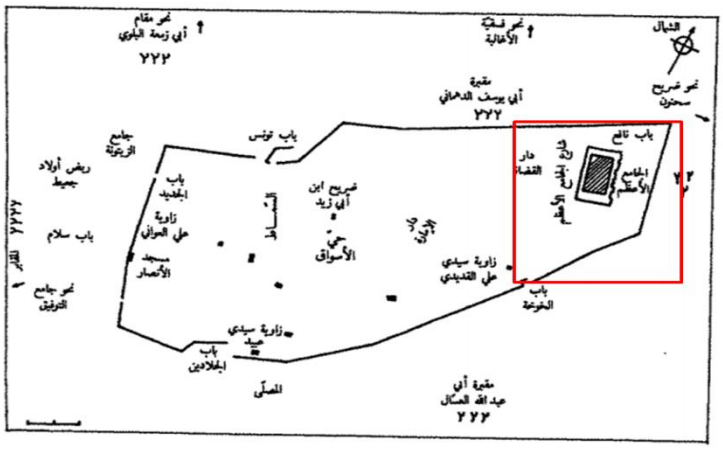

ومن خلال هذين المثالين أردت أن أخلص إلى نتيجة لها أهميتها في مدننا الحديثة وهي من أسس الروابط الاجتماعية فيها، الأمر الأول هو وجود المسجد الجامع الذي قدمنا الكلام عن أهميته ودوره في المحافظة على تكامل المجتمع وتكافله وهو هنا في هذين المثالين أول شي يبنى في المدينة وأول شيء يهتم به لما له من قداسة وحرمة في نفوس الناس، وهو أيضا مركز النشاط العلمي والإشعاع الفكري الذي يحدد

اتجاه المجتمع ويحافظ على نظامه، والأمر الثاني هو جعل كل قبيلة أو عشيرة في حي خاص بها وهو ما فقدناه في مدننا الحديثة ولا وجود له إلا قليلا .

وبالتالي فإن من مبادئ الإخلال بالترابط الاجتماعي نظام المدن حيث نرى اليوم الحي الواحد يسكنه أناس يربطهم الانتماء للوطن ولا لحمة بينهم، ثم يحلو لكل واحد أن يتصرف بحرية مزعومة مما ينتج عنه الانشقاق والإخلال بالتوازن الاجتماعي حتى نصل إلى الفساد الذي يتخبط فيه أدعياء الفكر الغربي المتحرر والمنحل ونقاسى ما يقاسونه في هذا المجال، ثم يصل الأمر بنا إلى انتشار الرذيلة بدل الفضيلة ومساوئ الأخلاق بدل مكارمها، وانحلال عرى الترابط الاجتماعي بدل توثيقها، رغم وجود الدين الإسلامي الذي اتخذناه شكلا لا مضمونا وادعاءً لا انتماءً، فإننا أسأنا فهمه وتجملنا به بدل أن نتحلى به، وتحررنا منه بدل أن نتقيد به ولو فهمناه حق فهمه والتزمنا به لكفانا في المحافظة على الرابط الاجتماعي الذي نسعى إلى تحقيقه اليوم .

أهم الدول الإسلامية بالمغرب:

- عصر الولاة منذ الفتح الإسلامي للمغرب 50هـ إلى 180هـ.
- عصر الإمارات 180هـ إلى 296هـ(الرستميون، الأدارسة، الأغالبة).
- الفاطميون 296هـ إلى 362هـ.
- الزيريون 362هـ إلى حوالي 540هـ، الحماديون 470هـ إلى 547هـ.
- المرابطون(المغرب الأقصى والأوسط إلى جزائر بني مزغنة والأندلس) 452هـ إلى 547هـ.
- الموحدون 547هـ إلى 668هـ(من المغرب الأقصى والأندلس إلى ليبيا).
- الحفصيون 627هـ إلى 964هـ، حكموا من بتونس إلى بجاية عاصمتهم تونس.
- الزيانيون أو بنو عبد الواد 633هـ إلى 954هـ من وجدة إلى بجاية عاصمتهم تلمسان.
- المرينيون 668هـ إلى 874هـ بالمغرب الأقصى عاصمتهم فاس.

ثم خلف الوطاسيون بني مرين 874هـ إلى 913هـ، ثم السعديون ثم العلويون.

وخلف بنو زيان وبنو حفص العثمانيون.

دولة بني مدرار بسجلماسة:

انتشر المذهب الصفري الخارجي في أقصى القسم الجنوبي والجنوب الغربي من المغرب على أيدي أئمة من العرب الخوارج الذين قصدوا هذا المكان فرارا من الأمويين، لذلك اعتنق أهل سجلماسة الإسلام على المذهب الصفري، وكان من زعماء الصفرية في هذه الناحية عيسى بن يزيد الأسود المكناسي الصفري الذي نزل في أرض سجلماسة سنة 138هـ.

فاجتمع عليه كثير من زناتة الصفرية، وكان عددهم يتجاوز الأربعة آلاف، فبايعه كبيرهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي الزناتي وتبعه قومه، وولوا عيسى هذا عليهم فشرع في تخطيط مدينة سجلماسة سنة 140هـ فأكمل بناءها، وأتقن سورها وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون على نواحيها، وأمر بالإكثار من غرس النخيل.

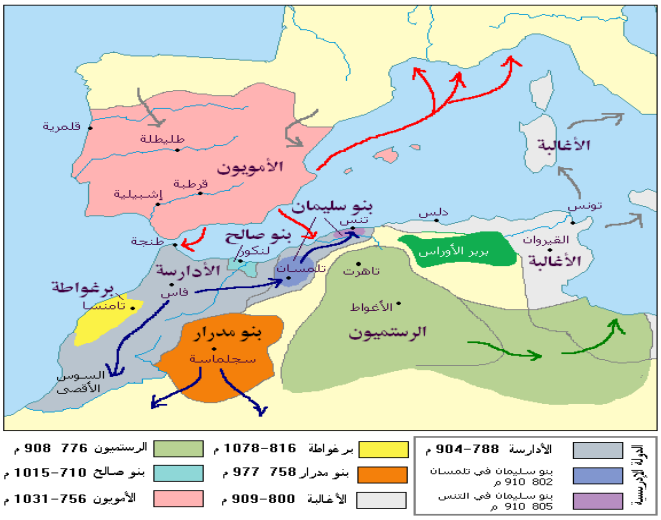

ثم تولى حكم سجلماسة اليسع أبو منصور الملقب بمدرار، ويعتبر اليسع المؤسس الفعلي لدولة بني واسول المعروفة بدولة بني مدرار، وأتم بناء سجلماسة واختط بها المصانع والقصور وأحاطها بسور جديد بعد أن هدم سورها الأول، أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب، وفتح فيه اثنتي عشرة 12 بابا محددة، وقسم داخل المدينة على القبائل.

ذكر ابن حوقل بأن بها النخيل والبساتين والحبوب، وأن أبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية.

الدولة الرستمية 160–296هـ/776–909م:

كان أبو الخطاب بن السمح المعافري حاكما على طرابلس، واستطاع دخول القيروان وعيّن عليها عبد الرحمن بن رستم، ولما قُتل على يد ابن الأشعث سنة 144هـ، فر ابن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط عند قبيلة لماية الإباضية في جبل سفجج وكان جبلا شديد الحصانة والمنعة، وكان يرافقه في رحلته تلك ابنه عبد الوهاب ومملوكه، وكان عبد الرحمن شيخا كبيرا.

ولما استقر به المقام عند قبيلة لماية حاول إنشاء إمارة، وسمع به الإباضية فقصدوه من كل مكان حتى اجتمع عليه من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء وحدهم ما يزيد على ستين 60 من كبار أهل العلم والرأي، وبقي عبد الرحمن بالجبل إلى أن اجتمع إليه عدد كبير من الإباضية وبايعوه بالإمامة، وينقل بوعزيز بأن بيعته بالإمامة كانت عندما انتقل إلى تيهرت وبنى مدينته هناك على سفح جبل غربي تيارت الحالية وكثر أتباعه فبويع سنة 160هـ/776م .

وقد توالى على حكم تيهرت ثمانية أئمة هم:

1- عبد الرحمن بن رستم 160هـ/776م.

2- عبد الوهاب بن عبد الرحمن 171هـ/787م.

3- أفلح بن عبد الوهاب 190هـ/805م.

4- أبو بكر بن أفلح 240هـ/854م.

5- أبو اليقظان بن أفلح 241هـ/855م.

6- أبو حاتم بن أبي اليقظان 281هـ/894م.

7- يعقوب بن أفلح 282هـ/895م.

8- اليقظان بن أبي اليقظان 294هـ/906م.

مدينة تيهرت:

اختير مكانها غرب المدينة الرومانية تيارت بحوالي خمسة أميال في سفح جبل قزول، بين ثلاثة أنهر في مكان مشجر، فحرقوا المكان ونظفوه كما فعل عقبة من قبل في القيروان وبدؤوا في بناء المسجد عام 144هـ/761-762م، كما ذكر ذلك ابن خلدون والشماخي في السير وأبو زكريا في تاريخه والدرجيني في الطبقات والبرادي في الجواهر، وكان هذا الجامع يتألف من أربع بلاطات وكان له مصلى للجنائز على نحو جامعي القيروان والزيتونة، كما اختطوا المنازل والقصور والأسواق والحمامات والمساجد والفنادق والحوانيت والأرحاء، وأحاطوا المدينة بسور حصين، وتفننوا تدريجيا في عمارتها وتنظيمها حتى أصبحت عروس تلك الأقطار وفخر الديار وعراق المغرب وبلخ المغرب وقاعدة المغرب الأوسط.

وصف المدينة عند الرحالة والمؤرخين:

لقد وصفها العديد من المؤرخين والرحالة والجغرافيين نذكر أقوالهم فيها فيما يلي:

اليعقوبي(ت292هـ): وهي مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية...وشرب أهلها من أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل جزول.

ووصفها **ابن حوقل**(ت367هـ) فقال:"وتاهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة أزلية والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور وهي على جبل ليس بالعالي، وفيها كثير من الناس وفيها جامع وفي المحدثة أيضا جامع، ولكل إمام وخطيب، والتجار بالمحدثة أكثر ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وحمامات وخانات".

قال العلامة **أبو عبد الله البنا**(ت380 و390هـ)أكثر بنائها بالحجارة بها أسواق، ومن دروبها درب مجانة، درب المعصومة، درب حارة القفير ودرب البساتين، شربهم من نهر...وتاهرت السفلى على واد عظيم ذات أعين وبساتين.

وقال عنها **البكري**(ت487هـ)ومدينة تيهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب، باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبلها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانش، ومنه شرب أهلها وهو في شرقيها.

الشريف الإدريسي(ت560هـ): كانت في القديم مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة، والقديمة ذات سور وهي على قمة جبل قليل العلو.

كاتب مراكشي(ت القرن6هـ) **الإستبصار**: وهي في سفح جبل قرقل وهي على نهر مينة الذي يأتيها من الغرب، ولها نهر آخر يجري في عيون تجتمع يسمى تانس ومنه تشرب أرضها وبساتينها.

ابن عذارى(ت حوالي 695هـ): اجتمع على عبد الرحمن الإباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم فنزلوا بموضع تيهرت وهي غيضة بين ثلاثة أنهار فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم وكانت في الزمان مدينة قديمة فأحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم وبقي بها إلى أن مات، وكانت حولها البساتين من أنواع الثمار كثيرة الأشجار.

ياقوت(ت626هـ): تيهرت الحديثة على خمسة أميال من القديمة، وهي حصن أبي بخاتة، وهو شرقي الحديثة، ويقال بأنهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة، وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مداسة وصنهاجة، فأراد عبد الرحمن بن رستم أن يشتريه منهم فرفضوا ولكنهم قبلوا أن يدفع لهم الخراج من السوق مقابل السماح له ولرجاله ببناء المنازل والمساكن، فبنوا وسموا الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم.

أبو الفدا(معاصر ليحي بن خلدون): نقلا عن عبد العزيز المغربي، تيهرت القديمة وهي تيهرت عبد الحق بينها وبين الجديدة مرحلة، وتيهرت الأولى على جبل متوسط وبها منبر وكذلك المحدثة بها منبر، وهي أعظم من القديم، ولها مياه تخترق دورهم وبها كرسي ملك الإباضية.

عبد الرحمن بن خلدون: فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة، وتمر بها وبالبطحاء إلى أن تصب في وادي شلف.

الأدارسة 172–311هـ/788–923م:

ثار الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن [علي] أيام خلافة موسى الهادي على عامل المدينة المنورة وتغلب عليها، ثم توجه إلى مكة والتقى مع العباسيين في موقعة فخ، غير أنه قتل عام 169هـ ونجا من هذه الموقعة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وفر إلى مصر متنكرا في زي تاجر وقيل غير ذلك، ومن مصر اتجه إلى بلاد المغرب فمر بالقيروان ثم تلمسان ثم طنجة فوليلي التي تقع على سفح جبل زرهون ووصل هناك عام 172هـ، فبايعه أهلها مع أميرهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، ووسع نفوذه إلى تلمسان التي بايعه أهلها أيضا بما فيهم أميرها محمد بن الخزر المغراوي، ثم توالت عليهم القبائل.

ورغم أن إدريس الأول أسس مدينة فاس سنة 172هـ إلا أنه لم ينتقل إليها من وليلي بل بقي بها إلى أن توفي ودفن بها، وكانت فاس بلدة صغيرة على الضفة الشرقية من الوادي وهي عدوة الأندلسيين.

ولما توفي إدريس خلفه ابنه إدريس الثاني ووصل نفوذه إلى شلف، واتفق مع الأغالبة أن يكون نهر شلف الحد السياسي الفاصل بينهما.

وفي سنة 202هـ قدم على إدريس جماعة من الربضيين الأندلسيين الذين أخرجهم الحكم الربضي من ربض شقندة بقرطبة، فأنزلهم إدريس المدينة القديمة التي كانت بها بيوت متواضعة مبنية باللبن ومسقوفة بفروع الأشجار، وبمجرد نزول الأندلسيين بها ازدهرت وتطورت ونافست فاس الجديد لذلك سميت بعدوة الأندلسيين، وفتح بسورها عدة أبواب وهي أبواب القبلة، الكنيسة أو الخوخة، أبو سفين، جراوة والشيبوبة والمخفية، أما أبواب عدوة القرويين فهي إفريقية، القلعة، الحديد، الفرَج أو السلسلة، الفيصل أو النقبة، إلا أن هذه الأسماء تغيرت فيما بعد.

ثم دبَّ الخلاف والشقاق بينهم فكثرت الاضطرابات، مما شجع الفاطميين على الاستلاء عليها حتى سقطت فاس عاصمة الأدارسة في عهد آخر ملوكهم الحسن الحجام عام 311هـ/923م، أما في الجزائر فقد استمرت الإمارة الإدريسية حتى عام 342هـ/953م، حيث سقطت تنس آخر إمارة لهم بيد زيري بن مناد الصنهاجي.

ليس للأدارسة آثار مهمة بالجزائر ما عدا مسجد أغادير بتلمسان ومدينة البويرة شرقي الجزائر العاصمة، أما في المغرب الأقصى فقد أسسوا فاس وجامع القرويين بها، وما يزال هناك قبر إدريس الأكبر.

أسماء أمراء الأدارسة:

1- إدريس الأول 172هـ/788م.

2- إدريس الثاني 177هـ/793م.

3- محمد بن إدريس الثاني 213هـ/828م.

4- علي الأول بن محمد 221هـ/835م.

5- يحي الأول بن محمد 234هـ/848م.

6- يحي الثاني بن يحي الأول 234هـ/848م.

7- علي الثاني بن عمر 234هـ/848م.

8- يحي الثالث بن القاسم 234هـ/848م.

9- يحي الرابع بن إدريس 292هـ/904م.

10- الحسن بن محمد بن القاسم الحجام 310هـ/922م.

في عهد **المرابطين**، دخل يوسف بن تاشفين فاس سنة 451هـ وقيل سنة 467هـ فأمر بهدم أسوارها التي كانت تفصل بين العدوتين وجعلها مدينة واحدة، وحصّنها وأمر ببنيان المساجد في شوارع فاس وأزقتها، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأسواق والأرحاء، وفي أيام ابنه علي شيّد القوراجة –وهو سور من البناء يتفرع عن السور الأصلي للمدينة وينتهي عادة ببرج براني يقوم بناؤه في أضعف المواقع الدفاعية في المدينة–التي تقع بين باب جيسة وباب أصليتن على يد قاضيه عبد الحق بن معيشة.

في عهد **الموحدين**: في سنة 540هـ حاصر عبد المؤمن بن علي فاس، ولما استعصت عليه سد الوادي ثم فتحه مرة واحدة فتدفق الماء كالسيل العارم، فهدم سور باب السلسلة، وتهدم من دور فاس ما يزيد على ألفي دار، ولما دخل فاس أمر بفتح ثغرات واسعة في سورها وقال:" إنا لا نحتاج إلى أسوار، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا" وبقيت فاس بلا سور إلى أن شرع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور في بنائها، وأكملها ابنه أبو عبد الله محمد الناصر سنة 595هـ، وأقام بها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء أسوار فاس وقصبتها الواقعة على الوادي، كما أقام الناصر أيضا باب الشريعة الذي يسمى باب محروق.

يقول المراكشي:" وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات...وتتخلل الأنهار أكثر دورها، زائدا على نحو من أربعين عينا، ينغلق عليها أبوابها، ويحيط بها سور، وفي داخلها وتحت سورها نحو من 300 طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إلها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيرا.

ويصف الجزنائي فاس بقوله:" وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين ومن بعدهم من الغبطة والرفاهية والدعة والأمن والعافية مما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب، لا سيما في زمن المنصور وولده الناصر، وكانت المساجد بها 785، ودور الوضوء 42، والسقايات 80، والحمامات 93، وأرحاء الماء 472، ودور السكنى 89236، والمصاري 17041، والفنادق 467، والحوانيت 9082، وقيسارية واحدة في كل عدوة منها، ودار السكة واحدة في كل واحدة منها، والأَطْرِزة 3094، ودور عمل الصابون 47، ودور الدباغين 86، ودور الصباغ 116، ودور تشبيك الحديد والنحاس 12، ودور عمل الزجاج 11، وكوش الجير 135، وأفران الخبز 1170، وأحجار عمل الكاغد(الورق) 400، كل ذلك بداخل المدينة، ودور الفخارة 180 بخارج المدينة"، لكن هذا العمران المزدهر لم يلبث أن تعرض للتدمير في أيام المجاعة والفتنة التي قامت أيام العادل وأخيه المأمون أبي العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس في أواخر عصر الموحدين والتي دامت حوالي 20سنة.

فاس في عهد **المرينيين**: في عهد المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق بنى مدينة جديدة قرب فاس سميت فاس الجديد أو المدينة البيضاء، واتخذها دارا للإمارة في سنة 674هـ، فاختطها في الجهة العليا على وادي فاس، وبناها وشيدها وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها، واختط الناس الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور، وأقام القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادي النجا، وقنطرة مرين.

ولما أتم بناء سور مدينة فاس الجديد أمر في سنة 676هـ ببناء الجامع الكبير بها للخطبة، وأسس على يدي أبي عبد الله ابن عبد الكريم الجدودي وأبي علي بن الأزرق والي مكناسة، واشتغل في البناء أسرى الروم الذين جيء بهم من الأندلس، وتم بناء الجامع سنة 677هـ، وفي سنة 679هـ أقام بمدينته الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة، وبنى بها حماما عظيما وقصورا لوزرائه، وعمرت المدينة بعد ذلك بالمدارس والفنادق والأسواق، ولقد أجرى أبو يوسف يعقوب المياه إليها عن طريق وادي الجواهر وغدير الحمص غربي المدينة، واختط بها قصرا مشرفا على محل خروجه.

مدينة بجاية:

تأسست بجاية عام 460هـ/1067م على يد الأمير الناصر بن علناس وسماها الناصرية ثم غلب عليها اسم بجاية، وقد أسست على السفح الشرقي للجبل المشرف على البحر إلى جوار مصب وادي الصومام غربا، وانتقل إليها الناصر عام 461هـ/1068م، وأسس فيها ورشتين لبناء السفن والمراكب البحرية الحربية والتجارية، وكذا قصرا لزوجته بلارة بنت تميم بن المعز أمير المهدية الصنهاجي، وتوسع عمرانها بعد ذلك حتى أصبح بها 72 مسجدا و21 حيا و150 ألف ساكن، وقصور وحمامات ودكاكين وتكايا ووكالات وكتاتيب وورش لصناعة الخشب والأدوات الطينية والنحاسية والحديدية والحلى الفضية والذهبية.

سور بجاية الحمادي، عن بورويبة، الدولة الحمادية، ص200.

وجلب إليها الماء عبر السواقي والقنوات العلوية، وازدهرت الفلاحة حولها وفي فحصها فوجدت الحبوب وغرست الأشجار المثمرة وربيت الحيواناتوفي عهد ولده المنصور الذي عرف بولعه بالبناء، أسس جامع بجاية وجدد قصورها، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر الملك وقصر المنار وقصر الكوكب وقصر السلام وغيرها. وبهذا توفرت الأغذية والحبوب والخضر والفواكه واللحوم ونشطت بها صناعة الأسلحة والذخائر والعتاد الحربي، وأيضا صناعة الشموع والطرز والنسيج ونسخ الكتب وصناعة الورق، ومن أبرز قصورها قصر اللؤلؤة خارج المدينة قصر أميمون بجوار ضريح سيدي التواتي، قصر الكوكب، قصر بلارة، قصر الرياض البديع الغربي، وقصر الرياض البديع الشرقي.

وصفها الإدريسي قائلا:" بجاية في وقتنا هذا (548هـ/1153-1154م) مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة،

والبضائع نافقة وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بوادٍ ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والحرابي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا، ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد وهي قد عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد.

بناء المسجد النبوي:

بركت الناقة عند موضع المسجد، فأمرهم ببنائه، وبنى معهم، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل عُمده الجذوع، وسقفه الجريد، وبنى حُجَر أزواجه صلى الله عليه وسلم إلى جانبي المسجد، وعرفت يثرب من يومها بمدينة الرسول أو المدينة المنورة.

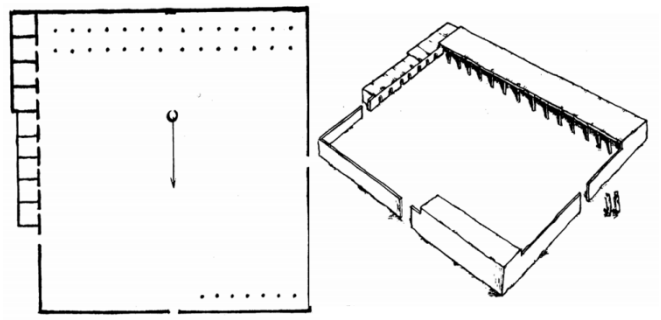

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم على عهده

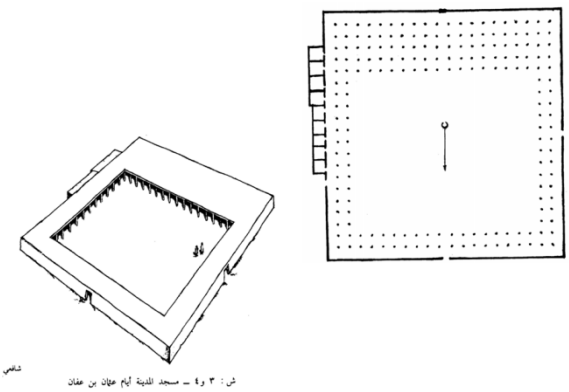

ش: ٣ و ٤ ـ مسجد المدينة أيام عثمان بن عفان

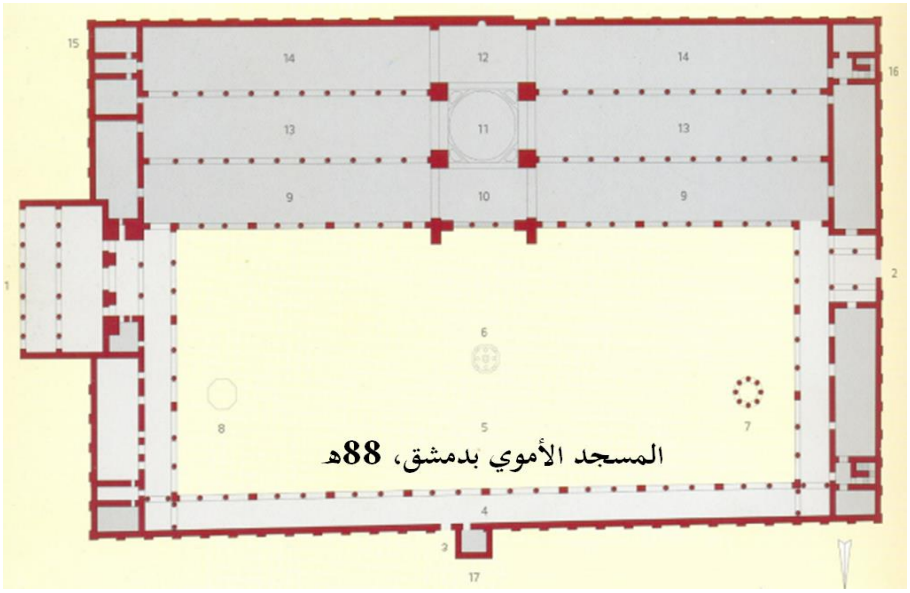

المسجد الأموي بدمشق، 88هـ

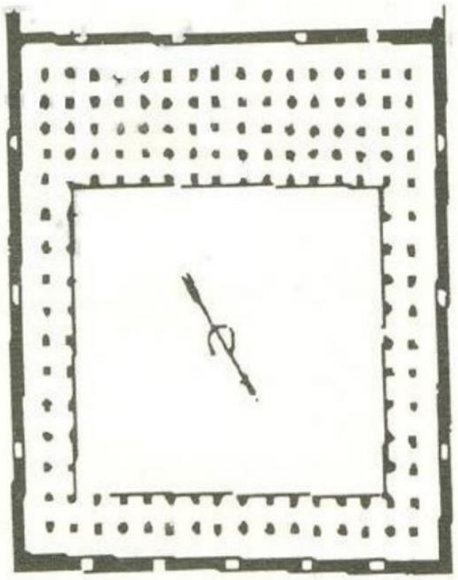

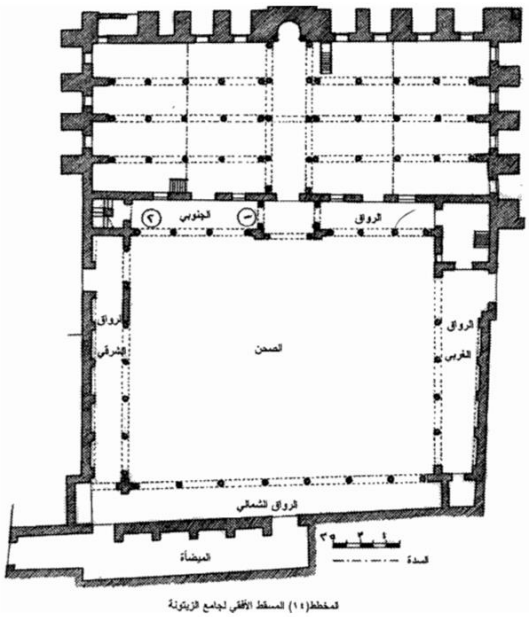

المخطط(١١) المسقط الأفقي لجامع الزيتونة

ل 11: مسجد الكوفة

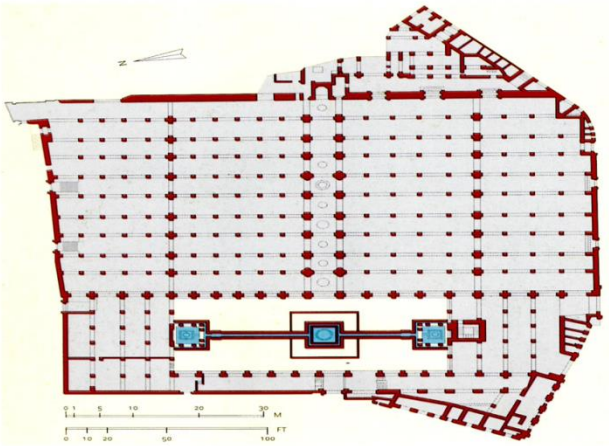

جامع القرويين بفاس عن:
Henri stierlin, p188

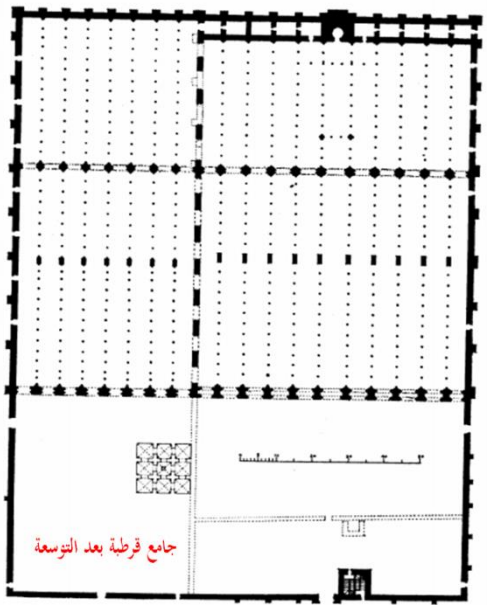

مسجد القيروان:

يعتبر أقدم مسجد في المغرب الإسلامي والمصدر الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية الأندلسية عناصرها، بناه عقبة بن نافع عند بنائه لمدينة القيروان وجعل موقعه بوسطها، واستغرق تشييده خمس سنوات كاملة من سنة 55هـ/670م وانتهت الأشغال في عام (55 هـ/675م) وذلك لانشغال المسلمين بفتوحاتهم لمعاقل البربر والتي استشهد في إحدى معاركها عقبة بن نافع.

وصورة المسجد غير معروفة تماما بسبب الزيادات والإصلاحات التي طرأت عليه، وقد ذكرتها المصادر والمراجع كالبكري وابن خلدون وأحمد فكري وغيرهم، ويبدو أن المسجد عند تشييده كان مكونا من ظلة للصلاة مسقوفة بعريش يقوم على جذوع النخل إقتداء بالمسجد النبوي آنذاك، ويتقدم الظلة صحن مكشوف بنفس حجمها.

وما نستطيع قوله على ما طرأ على المسجد هو أنه في سنة 76هـ/695م وقيل في سنة 80هـ وقيل 84هـ وقيل كان ذلك مابين 79 و84هـ هدم المسجد باستثناء المحراب ثم زاد فيه حسان بن النعمان فأصبح يتألف من تسع(9) بلاطات عمودية على جداري القبلة وأربعة أساكيب، ولم يكن للمسجد مجنبات تطل على الصحن.

في سنة 103هـ وقيل سنة 105هـ وقيل فيما بين عامي (105-109هـ/723 – 727م) أصبح عدد السكان أكبر مما كان عليه من قبل فزاد بشر بن صفوان عامل هشام بن عبد الملك في الجهة الشمالية للمسجد، واشترى جنة كبيرة كانت لقوم من الفهريين جوفي المسجد وبنى في صحن المسجد ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم بالقرب من الأروقة، وبنى المئذنة، فأصبح يتألف من سبعة عشر17 بلاطة عمودية على جدار القبلة مع سبعة أساكيب، كما أضاف تلك المئذنة الرائعة التي شيدها عند وسط الحائط الشمالي للمسجد، وبنى أيضا ماجلا في الصحن.

ثم جاء من بعده الوالي العباسي يزيد بن حاتم المهلبي فقام بهدم الجامع عدا المحراب والمئذنة وأعاد تشييده على الهيئة التي نراها اليوم تقريباً وكان ذلك في عام 157هـ/748م، ذكر أحمد فكري أن ذلك كان سنة155هـ، وفي الحقيقة لم يهدم الجامع بل ربما أعاد بناء بيت الصلاة أو أنه أصلح المسجد فقط، أما عبد العزيز سالم فيعتقد بأن يزيد لم يهدم الجامع بل أصلح وجدد بعض الزخارف بالجامع.

في سنة 221هـ/836م أعاد زيادة الله بن إبراهيم بن أغلب بناء جامع القيروان وتوسيع ظلاته ليتناسب وموقع القيروان الجديد كعاصمة للدولة الأغلبية التي أصبحت تهيمن على افريقية، وقيل بأنه

هدم أجزاءً كثيرة منه ولم يهدمه كله، والظاهر كما قال أحمد فكري أنه لم يهدمه وإنما أضاف إليه إضافات مهمة، كزيادته في سعة رواق المحراب، وتجديده للمحراب بالرخام الأبيض المخرم المنقوش، وبنائه للقبة التي تلي المحراب.

وقد شملت الزيادة الصحن الذي أحيط بأروقة، وأضيف رواق مشرف على الصحن، وعملت قبة تسمى قبة البهو بعد أن هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد بعد أن رفعها عما كانت عليه، كما زيد في زخرفته وأهم هذه الزخارف المضافة اللوحات الرخامية المخرمة التي غطت المحراب القديم لإقامة محراب آخر لأن محراب عقبة كان منحرفا عن القبلة، وقد خطّأه الفقهاء وأعيان المدينة ولم يقبلوا على تغيير محراب عقبة، فقد حاول الأمير الأغلبي أن يهدم محراب عقبة القديم لانحرافه عن الاتجاه الصحيح للقبلة، لكن فقهاء المالكية اعترضوا على ذلك، واضطر الأمير زيادة الله الأغلبي في نهاية المطاف إلى القبول بحل وسط، تم بمقتضاه تغطية المحراب القديم بجدار مبنى بحيث لا تظهر معالمه أمام المصلين ويظل قائماً في ذات الوقت، وقام الأمير الأغلبي ببناء جدار جديد للقبلة بوسطه محراب جديد للمسجد، وأنقذ هذا الحل الوسط محراب عقبة بن نافع من الاندثار.

قال كريزول أن ارتفاع المحراب 1,98م وعمقه 1,58م، وله قوس حدوي على جانبيه عمودان من الرخام الأحمر البرتقالي، ولم يوافق على مقولة أن محراب عقبة لا يزال خلف المحراب الحالي، وذكر أن تلك المقولة عبارة عن إشاعة لا أساس لها من الصحة، كما أنه من المستحيل أن يكون لمسجد عقبة محراب مجوف سنة 50هـ، كما اعتمد في رأيه هذا على جورج مارسي، وقد خالف أحمد فكري هذا القول وأكد على أن محراب عقبة فعلا موجود خلف المحراب الحالي.

وفي هذه الأعمال المعمارية وضعت الحدود النهائية لجامع القيروان، فصار عبارة عن صحن مكشوف تحيط به أربع ظلات للصلاة، أكبرها وأعمقها ظلة القبلة التي كانت تضم وقتذاك (17) بلاطة ويحمل عقودها (414) عموداً رخامياً.

في سنة 248هـ/864م رُمم المسجد من طرف أبي إبراهيم أحمد بن محمد، وبخصوص البلاطات التي تكتنف المحراب فقد نقل كريزول عن مارسي أنها من عمل هذا الأمير والذي أتم الأعمال في المسجد في هذه السنة أي سنة 248هـ، وهو أيضا الذي أضاف اللوحات الرخامية بالمحراب بالإضافة أنه صنع المنبر.

وفي سنة 261هـ/875م زاد إبراهيم بن محمد في طول المسجد وبنى قبة باب البهو وهي قبة حجرية هائلة تتوج ظلة الصلاة، وتقوم عقود هذه القبة على (32) عموداً رشيقاً من الرخام وهي قبة منقوشة

من الداخل بالزخارف المنفذة بالحفر في الحجر، وقد وصف هذه القبة أيضا كريزول وقال أن بها زحارف ملونة مؤلفة من لفائف الكرمة التي تشكل العقد والمملوءة في معظم الحالات بورقة عنب خماسية الفصوص وعنقود من العنب، وقيل بأن هذا الأمير هو الذي بنى المجنبات التي تدور حول الصحن.

بقي المسجد على ما هو عليه دون تغيير جوهري حتى عهد المعز بن باديس الزيري الذي انعزل عن الفاطميين وعاد إلى المذهب المالكي حيث قام هذا الأمير بإجراء تجديدات هامة في الجامع، كواجهات مجنبات الصحن وقد سُجل تاريخ هذه الإضافات على أحد أعمدة المجنبة الغربية، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي نصها:" هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأشيري في رمضان من عام اثنتين وأربعمائة"، ومن أبرز الزيادات التي قام بها المقصورة الخشبية التي ألصقها بالمحراب والتي لا تزال إلى الآن، وقيل أنه أمر بعمل مصلى يتصل بهذه المقصورة وكان ذلك عام 441هـ/1049م، وفي منتصف القرن الخامس الهجري عمل سقف المسجد الخشبي، والأبواب كما جددت زخارف أسقفه القديمة.

في عهد الحفصيين أُصلح المسجد ورمم، فقد زاد فيه الخليفة أبو حفص مدخلين عليهما كتابة تدل على ذلك وتُؤرخ بـ:693هـ.

في سنة 1028هـ/1618م في العهد العثماني رمم مراد باي المسجد و أصلحه.

وقد حُسّن المسجد في القرن الثاني عشر هجري، وأُدخلت على رواق محرابه زخارف جديدة في القرن الثالث عشر، ووضع لهذا الرواق باب خشبي جميل الصناعة سنة 1244هـ/1828م.

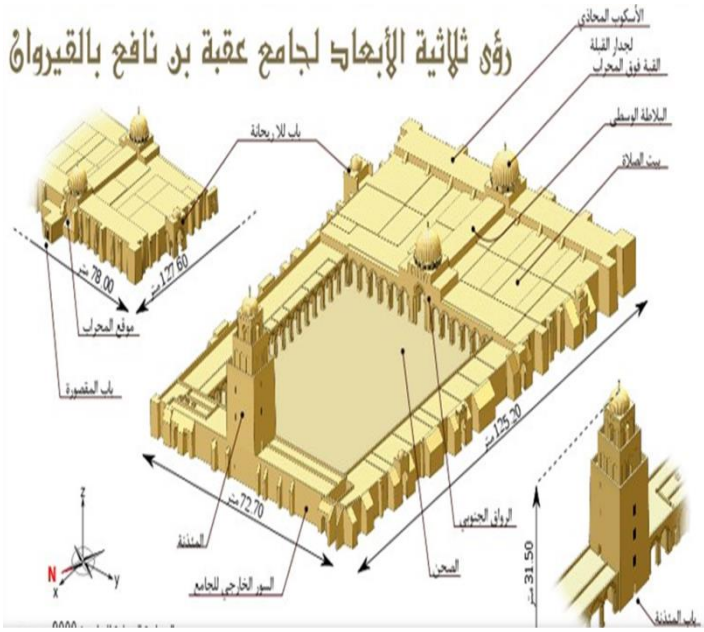

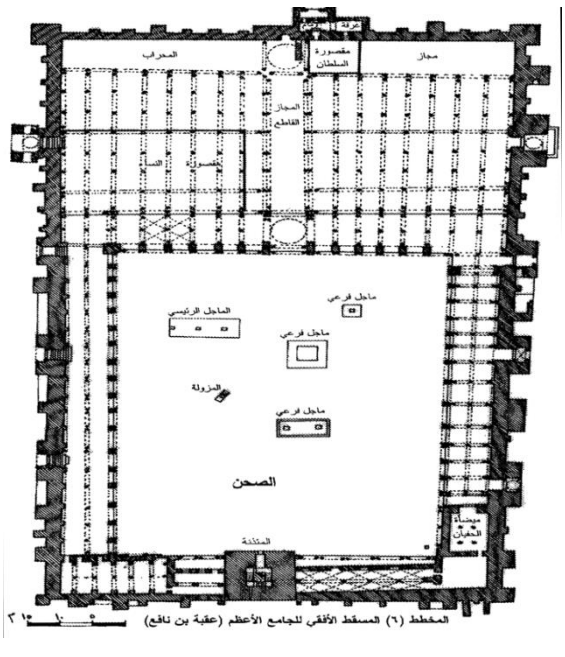

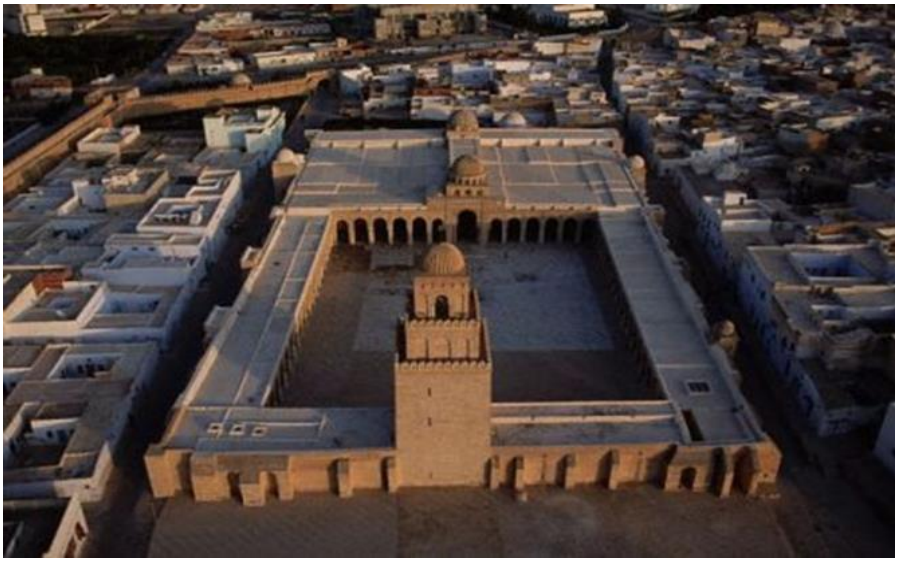

المدارس الإسلامية:

إذا كان العلم بدأ لصيقا بالمسجد فإنه كان مرتبطا من جهة أخرى بالدين والعقيدة، بجميع أفرعها واختصاصاتها، وكان للمساجد دور هام في تطور العلوم عند المسلمين وازدهار الحياة الثقافية والفكرية عندهم.

وبما أن المسجد كان مؤسسة جماعية، فإن العلوم به كانت مسؤولية الجماعة تحتضنها وترعاها وتنفق عليها، ولم يكن للدولة تدخل فيها إلا باعتبارها جزءً من هذه الجماعة، ولا يتعدى ذلك منها إلى التوجيه، وإنما كان ذلك مهمة العلماء والمدرسين والفقهاء، خدمة للدين ومصالح المسلمين معتمدين على الفهم السليم لتوجيهات العقيدة ومقاصدها الكبرى، وكان ذلك كله باعثا على تطور الحركة العلمية والثقافية في العالم الإسلامي وازدهارها، حتى بلغت ذروتها في القرن 4هـ/10م.

وإلى هذا النوع من المؤسسات الجديدة–وهي المدارس– أوكلت مهمة تكوين فئة من العلماء والفقهاء والدعاة هم بمثابة موظفي الدولة لهم القدرة والكفاءة على التوعية والإصلاح والتأثير الاجتماعي.

المدرسة اصطلاحا:

يذهب البعض أن المدرسة مشتقة من الفعل "درس الكتاب" يدرسه درسا ودراسة، إذا كرره للتمكن منه، ودارست درّست، والمدرس: هو الموضع الذي يدرس فيه، وهي–أي المدرسة– عند آخرين كلمة عبرية عرفتها اللغة العربية قبل الإسلام.

والمدرسة منشأة من مستحدثات الإسلام فلم تكن معروفة قبله كما لم تكن معروفة في الفترة الإسلامية المبكرة، وتربط المصادر ظهورها مع اختلاف بينها في ذلك بالربع الثالث من القرن 4هـ/10م.

وظيفتها: إن المدرسة مؤسسة لتدريس العلوم الإسلامية ودراسة علوم الشريعة بصفة خاصة والتي تضم مجموعة من العلوم المساعدة كالآداب والفلسفة وعلم اللغة وغيرها، كما يمكن أن تدرَّس بها علوم الطبيعة والطب وما إلى ذلك.

وقد خلُص الدكتور أحمد فكري بعد دراسة الآراء المتداولة حول المدرسة إلى أن المدرسة اتُّخذت لوظيفتها الرئيسية من كونها أُعدت لتضم بيوتا لسكنى طبقة متميزة من الفقهاء والطلاب، وأنه لا مجال للأخذ بالفكرة القائلة من أن إنشاء المدارس كان لمناهضة الشيعة ونشر السنة وإعداد أئمة مختصين بالوعظ، وهي أفكار متداولة بين المستشرقين والباحثين الغربيين.

أما المغرب فقد كان بمنأى عن الاختلافات المذهبية إذ قد ساد في المذهب المالكي، وبذلك اختصت مدارس المغرب منذ قيامها بنشر العلوم الدينية والشرعية على المذهب المالكي، فازداد الإقبال على العلم والمعارف وكثر طلابه واتسع نطاق تشييد المدارس والإكثار منها في مدنه وأقاليمه.

لقد ظهرت المدارس في البداية في المشرق الإسلامي فقد وجدت المدرسة النظامية في بغداد سنة 457هـ/1065م، وفتحت أبوابها للطلبة سنة 459هـ/1067م، ثم المدرسة المستنصرية نسبة للخليفة المستنصر بالله العباسي(625-631هـ/1227م-1234م)، وغير هذه المدارس.

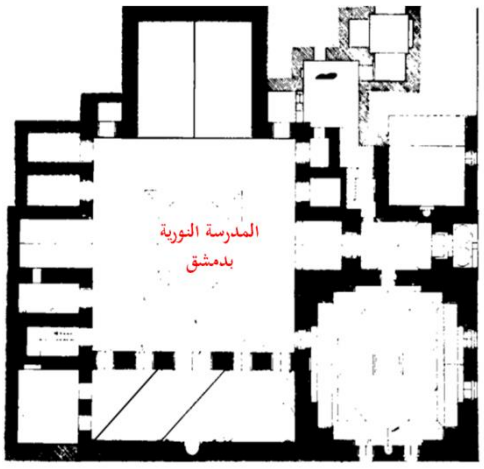

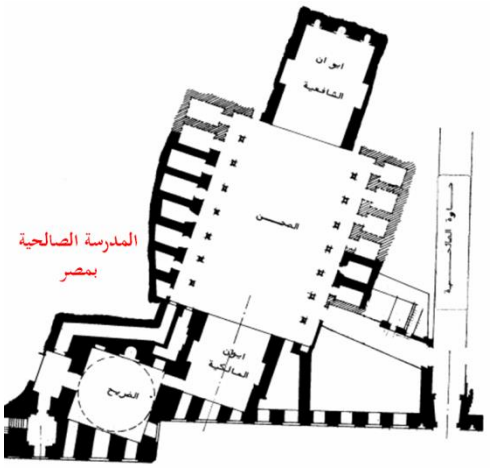

مدارس المغرب الإسلامي

أما في المغرب فقد انتقل نظام المدارس إليها في حوالي 532هـ/1137م، وتشير النصوص التاريخية إلى وجود المدارس في المغرب الإسلامي منذ عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (555-595هـ/1160-1198م)، ومن العلماء من يرى أن المدارس ظهرت في العهد المرابطي على عهد علي بن يوسف بن تاشفين واعتمد هذا الفريق على معلومات التاريخية التي أوردتها المصادر من أمثال ابن أبي زرع، غير أن فريق آخر من الباحثين يرى بأن ظهور المدارس كان بعد العهد الموحدي ويعتمدون في ذلك على عدم وجود أدلة أثرية تؤكد وجود هذه المدارس، وإنما الأمثلة الباقية تعود إلى العهد الحفصي والمريني والزياني.

قال جمال أحمد طه بأنه بعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة الذين يردون لتلقي العلم من سائر أطراف البلاد، فنجد بعض أصحاب كتب التراجم عند حديثهم عن العلامة الهزميري المتوفي عام 706هـ/1306م بمدينة فاس يذكرون أنه دفن على مقربة من مسجد الصابرين المعروف الآن بروضة سيدي أبي مدين، وقد كان في القديم مدرسة، بل يضيفون إلى هذا أن مدرسة أبي مدين هي التي كانت في القديم تحمل اسم مدرسة الصابرين والمرابطين اللمتونيين، لأن يوسف بن تاشفين هو الذي بناها بعد دخوله مدينة فاس حوالي عام 462هـ/1069م.

وقد ظلت المدرسة المذكورة تقوم بمهمتها في إيواء طلبة العلم وتثقيفهم طيلة أيام المرابطين...كما أن الوصايا الوقفية تدل دلالة واضحة على أن هذه المدرسة كانت ملاذا للواردين عليها من سائر الجهات لتلقي العلم بها على نفقة الأحباس، ولا شك أنه كان للمدرسة المرابطية نظائرها هنا وهناك مما اختفى أثره وذهبت معالمه، يذكر عبد القادر زمامه أن أطلال هذه المدرسة ماثلة إلى الآن قريبا من المنطقة المعروفة في القديم باسم حومة الكغاطين، وعلى هذا يمكن القول بأن المدارس في المغرب الإسلامي ظهرت في نفس الفترة التي ظهرت فيها بالمشرق الإسلامي.

مدارس إفريقية–تونس–:

بدأ ظهور المدارس بتونس خلال الحكم الحفصي 625-941هـ/1218-1534م، ذلك أن أبا زكريا الحفصي لما استقل بإفريقية بنى له فيها قصبة عرفت باسم قصبة الموحدين شيد فيها جامعا

ومدرسة عرفت باسم المدرسة الشماعية، خصصها لتدريس المذهب الموحدي، وذلك سنة 633هـ/1235م وبذلك تكون هذه المدرسة أول مدرسة في تونس.

ثم توالى بناء المدارس بعد ذلك وتواصل إنشاؤها طيلة القرن الثامن الهجري، حتى فاق عدد المدارس نهاية القرن الثامن عشرة مدارس، ففي حوالي 650هـ/1252م أنشأت الأميرة الحفصية عطف أم المستنصر وزوجة أبي زكريا المدرسة التوفيقية المعروفة باسم مدرسة الهواء، وكانت أخت السلطان أبي يحيى أبي بكر قد بنت أو أكملت المدرسة العتيقة، وفي أواخر القرن السابع هجري ابتنى أبو زكريا الثاني بن إسحاق المدرسة المعرضية.

وخلال القرن الثامن هجري برزت في تونس مجموعة أخرى من المدارس، بقي بعضها إلى الآن وبعضها الآخر لم يبق له أثر، ومن هذه المدارس المدرسة العنقية، والعصفورية التي حلت محلها المدرسة الخلدونية، وازدادت المدارس خلال القرن التاسع هجري وتعدى عددها التسعة مدارس، بناها سلاطين وقادة الدولة الحفصية، وأُلحق ببعض تلك المدارس زوايا أو مساجد أو أسبلة، وظهر بذلك نمط جديد للمدارس هو المدرسة الزاوية، ومن تلك المنشآت نذكر مدرسة باب البحر التي شيدها السلطان أبو فارس عبد العزيز سنة 799هـ/1396م وأكمل بناء مدرسة باب انتجمي التي شرع في إقامتها القائد نبيل وذلك سنة 850هـ/1446م، وفي عام 838هـ/1434م شرع السلطان المستنصر بالله في بناء مدرسة أكملها أخوه وخلفه أبو عمرو عثمان سنة 841هـ/1431م.

المدرسة الشماعية

مدارس المغرب الأقصى:

بعد ثلاثين سنة من تأسيس أول مدرسة حفصية انتقل نظام المدارس بطابعه ووظيفته إلى مدينة فاس المرينية، وتعتبر الدولة المرينية أكثر دويلات المغرب الإسلامي حيوية ونشاطا في مجال التشييد العمراني بصفة عامة وتشييد المدارس بصفة خاصة، وأنفق سلاطينها وأمراؤها على عمارتها وتزيينها أموالا كثيرة، فجاءت على درجت كبيرة من الأبهة و الفخامة.

وكانت أولى المدارس التي أنشئت بالمغرب الأقصى مدرسة الصفارين التي شيدها أبو يعقوب بن عبد الحق قرب سوق صناعة النحاس، وأوقف عليها الأوقاف، وأجرى على الطلبة المرتبات، وكان ذلك حوالي سنة 670هـ/1271م، وزود المدرسة أيضا بخزانة للكتب، وصلت إليه من الأندلس، كما ابتنى نفس السلطان مدرسة أخرى بمراكش وكانت هذه المدرسة أول وآخر مدرسة في القرن 7هـ/13م.

وخلال القرن الثامن هجري اشتدت حركت التعمير على يد أعظم سلاطين الدولة المرينية وهم كل من أبي سعيد عثمان بن يعقوب، والسلطان أبو الحسن علي بن عثمان، والسلطان أبو عنان فارس المتوكل، ففي عهد الأول بنيت مجموعة من المدارس حظيت فاس بأغلبها وذلك بمساعدة إبنه أبي الحسن، وكانت تلك المدارس مدرسة فاس الجديد، أو مدرسة دار المخزن شيدها السلطان أبو سعيد سنة 720هـ/1320م تلتها مدرسة الصهريج أو المدرسة الكبرى، وقد بناها الأمير أبو الحسن ولي العهد في حياة والده وذلك سنة 721هـ/1321م بالقرب من جامع الأندلسين بالحي الغربي من فاس البالي، وبجوار مدرسة الصهريج وفي نفس فترة شيدت أيضا مدرسة السبعين وخصصت للقراءات السبع.

كما بنيت مدرسة تازا في تاريخ يسبق قليلا تاريخ بناء مدرسة الصهريج، ولعل أهم مدارسة بناها أبو سعيد هي مدرسة العطارين بفاس وشرع العمل فيها سنة 723هـ/1323م وكملت سنة 725هـ/1325م.

تتميز الفترة الثانية وهي فترة أبي الحسن علي المريني بأكبر كم من المنشآت وخاصة المدارس، فيذكر ابن مرزوق بأن أبا حسن أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى والأوسط مدرسة، ومنها مدرسة تازا، مكناسة، سلا، طنجة، سبتة، أنفي، أزمور، أسفي، أغمات، مراكش، القصر الكبير، العباد بتلمسان، وبالجزائر مدراس مختلفة الأوضاع باختلاف البلدان.

فمدرسة سلا شيدت سنة 746هـ/1345م، والمصباحية مع مدرسة العباد سنة 747هـ/1346م.

أما المرحة الثالثة فالتي في عهد أبي عنان فارس ابن أبي الحسن علي المريني، وقد أنشأ هذا الأخير مجموعة من المدارس أيضا ومن أهمها المدرسة البوعنانية بمكناس، والمدرسة البوعنانية بفاس، وكان يطلق عليها أيضا المدرسة المتوكلية، كما شيد أبو عنان أيضا بتلمسان لما أخذها من الزيانيين مدرسة ألحقها بربض سيدي الحلوي، وألحق بالمدرسة زاوية وضريحا.

المدرسة البوعنانية بفاس

المدارس بالمغرب الأوسط:

لم تشذ الدولة الزيانية عن جارتيها الحفصية والمرينية في الاهتمام بالمدارس وبنائها، غير أنها لم تكن بنفس الدرجة بسبب الحروب المتواصلة مع هاتين الجارتين وخاصة منها المرينية، وبهذا فقد شيد الحكام الزيانيون ثلاثة مدارس بتلمسان، كانت أولى هذه المدارس المدرسة التي بناها السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710هـ/1310م للعالمين الجليلين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام من أهل برشك، وسميت **مدرسة اولاد الإمام**، أو ابني الإمام.

وكانت المدرسة ما تزال قائمة في عهد ابن مريم في القرن 10هـ/16م، داخل باب كشوطة، وظلت كذلك حتى منتصف القرن 13هـ/19م إذ عاينها بارجيس عند زيارته لها، غير أن جورج مارسي يشير إلى أن المدرسة ذات القاعتين المخصصتين للتدريس ومسكني ابني الإمام الملحقتين بها قد اندثروا جميعا، ولم يبق من تلك المجموعة المعمارية غير المصلى الصغير المشرف على الصحن الصغير، ويرجح أنهما كانا تابعين للمدرسة، وخلال الحفرية التي أنجزت في 2011م أظهرت جزء من الصحن، كما

اتضح أن جزء منها جعل مقبرة خاصة في العهد العثماني، ولم يكتمل العمل لمعرفة التخطيط الفعلي لها.

وخلال حكم أبي تاشفين (718هـ-737هـ/1318م-1337م) بنيت المدرسة **التاشفينية** نسبة له، وكانت تسمى في حياته باسمه ثم سميت بالمدرسة الجديدة بعد وفاته، ويشير التنسي إلى تأسيس المدرسة بقوله:"..وابتنى المدرسة الجليلة العديمة النظير ... ووضع للتدريس بها الفقيه العالم أبو موسى عمران المشدالي إكراما لنزوله عليه" ومن العلماء الذين درّسوا بها أيضا أبو محمد عبد الله السلاوي ومحمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي وأبو عبد الله محمد بن محمد المقري وغيرهم.

فالتاشفينية كان نظامها مزدوجا فهي عبارة عن مسجد مدرسي، ولكن تقلصت مساحة المسجد الذي أصبح لا يعدو أن يكون بيتا للصلاة، وحتى المحراب أصبح على شكل قوس أصم، وهكذا نجد أن أول ما يقابل الداخل الصحن ويقابله في اتجاه القبلة بيت الصلاة وهو أيضا قاعة للدروس، كما تتوفر المدرسة على منارة للأذان، وهذا التنوع في التصميم جعل التاشفينية تنفرد بصفات وخصائص تميزها عن غيرها من المنشآت الأخرى.

ويبدو أن المدرسة كادت تتوقف عن مهمتها في عهد أبي العباس أحمد العاقل (830-886هـ/1430-1471م) فقام هذا الأخير بترميمها وإصلاحها، وظلت المدرسة قائمة حتى سنة 1878م حيث قررت السلطات الاستعمارية تهديمها وقد قام دوتوا Du toit بعمل مخطط ومقاطع لها، كما قام دانجوي Danjoy برسم بعض زخارفها وخاصة زخارف الزليج.

وفي حدود سنة 763-765هـ/1361-1363م بنيت المدرسة **اليعقوبية** على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني وسماها على اسم والده يعقوب، كما سميت أيضا باسم مدرسة سيدي إبراهيم المصمودي، وقد درس بها الشريف التلمساني بعد أن قدم من المغرب الأقصى إلى الأمير الزياني الذي زوجه ابنته.

وكانت ذات بناء جميل وفناء واسع، وقد وصفها صاحب زهرة البستان فقال: فأقيمت مدرسة مليحة البناء واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالأصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم، غرس بإيزائها بستنتين يكتنفانها ... وصنع فيها صهريجا مستطيلا وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلا، فيا لها من بنية ما أبهجها.

ولم يبق ما يساعدنا على رسم مخططها ومعرفة أقسامها.

مدرسة العباد:

وهي من بناء أبي الحسن علي المريني لما أخذ تلمسان من الزيانيين، وقد أنشأها مع مركب بأكمله خارج تلمسان بالجنوب الشرقي منها على بعد ميلين، والمركب يتألف من جامع ومدرسة وضريح وقصر ومنازل لسكناه وغيرها، وقد أنشأت المدرسة سنة 747هـ/1347م بعد ثماني سنوات من إتمام الجامع (739هـ/1339م)، وقد سميت المدرسة باسم المدرسة الخلدونية، وقد أطلق عليها هذا الإسم في وقت متأخر لأنه قد درّس فيها عبد الرحمن ابن خلدون فترة من الزمن.

تقع المدرسة في مستوى أعلى من مستوى المباني التي شيدها أبو الحسن المريني، وتقع في الجانب الغربي من الجامع، وهناك شريط كتابي يحدد بداية ارتفاع قبة بيت الصلاة بالمدرسة به تاريخ الإنشاء، والظاهر أن المدرسة تم بناؤها سنة 749هـ/1347م، وكانت المدرسة لاتزال تقوم بمهمتها في أوائل القرن 10هـ/16م، وعندما زارها برجيس أوائل القرن 13هـ/19م كانت في حالة يرثى لها من الأهمال والتهديم.

تتخذ المدرسة شكل مستطيل يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، تفتح بمدخل تذكاري يوصل إليه عبر درج صاعد والذي يقع في الواجهة الشمالية الغربية، وبها زخارف جميلة جدا تنم عن براعة الفنانين في تلك الفترة، يلي المدخل سقيفة عبارة عن فراغ مستطيل طوله 2,50م وعرضه 1,35م، نصل من خلال هذه السقيفة إلى الصحن الذي يقع في الجهة المقابلة، كما أننا لو اتجهنا يمينا نصل عبر رواق إلى الميضأة، وفي الجهة اليسرى هناك درج صاعد نصل عبره إلى الطابق العلوي.

الصحن: مستطيل الشكل طوله 16م وعرضه 14م يكتنفه رواق عرضه 1,75م يشرف على الصحن من جهتيه الشمالية والجنوبية ببائكة ثلاثية العقود بينما بائكتيه الشرقية والغربية رباعية، والعقود بالبوائك حدوية منكسرة قليلا، ترتكز العقود على دعامات مستطيلة وأخرى على شكل حرف لام الأوسط وهي التي في الأركان، يتوسط الصحن حوض مستطيل طوله 3,20م وعرضه 2,60م ويتصل بواسطة ساقية من جهته الجنوبية بحوض آخر أصغر منه حجما مربع الشكل، وقد غطيت أرضية الصحن بتبليطات صغيرة من زليج مربع الشكل بألوان متعددة.

بيوت الطلبة: نجدها بالرواقين الشرقي والغربي، وعددها 12 حجرة بمعدل ستة غرف في الجهة الواحدة، ويعلوها نفس العدد في الطابق العلوي، والحجرات مستطيلة الشكل مقاساتها 2,80م×2م

تفتح على الرواق بأبواب صغيرة، ويعلو كل باب نافذة صغيرة للإضاءة والتهوية، وتحتوي كل حجرة على خزانة حائطية مستطيلة لوضع الكتب أو المصابيح.

المصلى: وهو يتصدر الصحن في الجهة الجنوبية، وهو مصلى وقاعة درس في آن واحد، ويفتح على الصحن بباب محوري مع المحراب والمدخل الرئيسي عرضه 2,40م ويغلق بمصراعين.

أما القاعة نفسها فمربعة الشكل طول ضلعها 5,70م، ويتوسط المحراب الحائط الجنوبي الشرقي، وهو محراب خماسي الأضلاع عرض فتحته 1,50م وعمقه 2م، تغطيه من الداخل قبيبة صغيرة بأسفلها شريط زخرفي، أما جزؤه السفلي فكسي ببلاطات خزفية من العصر العثماني، ويعلو المحراب عقد حدوي منكسر وواجهته مزخرفة بزخارف متنوعة، وقد زخرفة القاعة بعدة زخارف أسفلها بالزليج، أما سقفها فمغطى بقبة خشبية كبيرة يتوسطها نجمة مركزية مشعة ذات 32 ضلعا لونت أضلاعها بألوان زاهية، وترتكز القبة على إفريز يتضمن عبارات بالخط النسخي المغربي الأندلسي مضمونه أبيات شعرية تذكر تاريخ التأسيس 747هـ.

ملاحق المدرسة: يكتنف قاعة الدرس أو المصلى على جانبيها الشرقي والغربي جناحين يفتح كل منهما على الرواق الذي يتقدم بيوت الطلبة.

الجناح الشرقي: هو عبارة عن أربعة الحجرات يتقدمها فناء صغير مستطيل مكشوف مقاساته 3,85م×3,20م ويتصل بالرواق الشرقي المشرف على صحن المدرسة، ويرجح أن هذه الحجرات كانت مأوى للمدرسين.

الجناح الغربي: وهو يتصل أيضا بالرواق المشرف على صحن المدرسة، وهو عبارة عن فراغ مربع، ويرجح أن هذا الجناح كان مخزنا يختص بحفظ أدوات المدرسة أو ربما كان مكتبة.

الطابق العلوي: نصل إليه عبر درج صاعد منكسر يوجد يسار المدخل الرئيسي للمدرسة، ويتكون من رواق بتقدم الغرف عبارة عن ممشى غير مسقوف يعلو أروقة الطابق الأرضي المحيطة بالصحن، وتفتح عليه غرف مماثلة ومطابقة لحجرات الطابق الأرضي، ولكن أبوابها تخلو من النوافذ وذلك لانفتاحها على الفضاء الذي من خلاله تحصل على الإضاءة والتهوية، أما الجهة الجنوبية التي تعلو المصلى أو قاعة الدرس فبها سقف هرمي الشكل الذي يغطي القبة الخشبية.

الميضأة: بنيت خارج المدرسة ملاصقة لركنها الشمالي الغربي وهي على هيئة بروز خارجي يقدر بحوالي 5,50م وهي مستطيلة الشكل يوصل إليها عبر دهليز مستطيل طوله 3,50م وعرضه

0.90م ويفتح عليه بباب عرضه 1م يقع يمين المدخل الرئيسي للمدرسة، ويشكل الدهليز والباب ممرا منكسرا على شكل حرف اللام الإبتدائي، ويؤدي الباب مباشرة إلى فناء مكشوف مستطيل مقاساته 4م×2,80م غطيت أرضيته بقطع من الزليج المربع الشكل متعدد الألوان، ويتصدر الفناء حوض للوضوء مستطيل الشكل مساحته 2,10م×1,50م يعلوه عقد حدوي متجاوز، وتتوزع بيوت الخلاء حول الفناء وتفتح عليه بأبواب ضيقة، ويقدر عددها بثمانية بيوت جميعها مستطيلة الشكل مقاساتها 1,40م×0,90م، أما الركنيه فمقاساتها 1,60م×1م، وتعلوها جميعا من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية وغطيت بأقبية متقاطعة، ويصل الماء إلى بيوت الخلاء عبر ساقية ممتدة في حوائطها مشكلة من أنصاف قنوات فخارية.

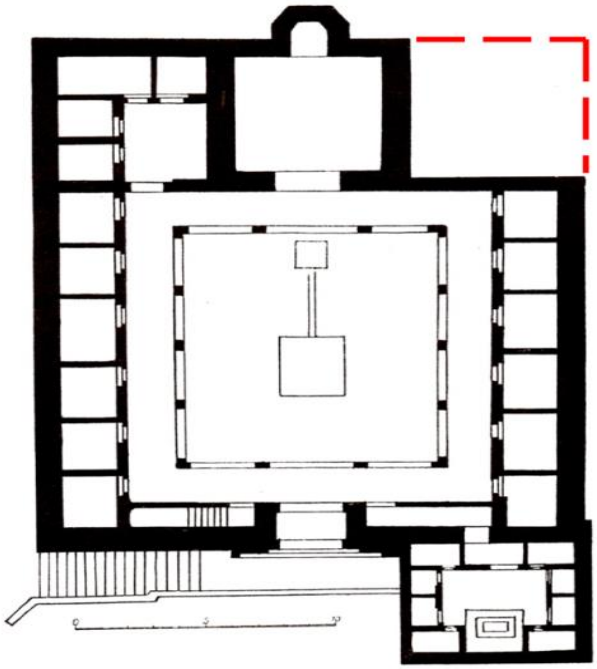

مخطط المدرسة الخلدونية

المساكن:

يجب أن نفرق هنا بين نوعين من المساكن، النوع الأول وهو القصور، وهي تلك المساكن الفخمة الكبيرة التي كان يختص بها بعض الأفراد في المجتمع الإسلامي كالحاكم ووجوه القواد وأهل البلاط، بالإضافة إلى الأثرياء، وكان تخطيطها المعماري يختلف عن تخطيط المساكن البسيطة، ويكون لها عدة طوابق، وبها العديد من المرافق، الإسطبل والمطبخ الكبير، والحمام بالإضافة إلى مساكن الخدم وبيوت صاحب القصر، وغير ذلك من المرافق.

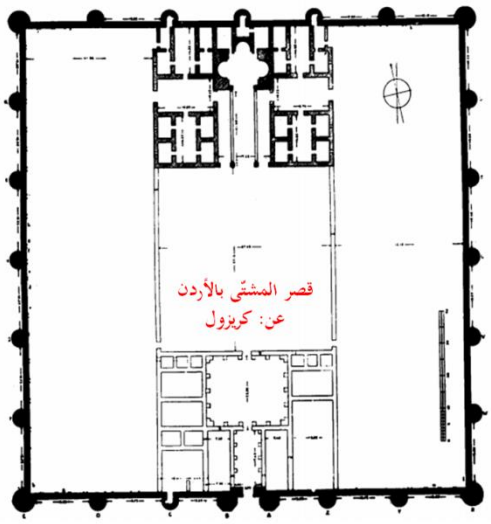

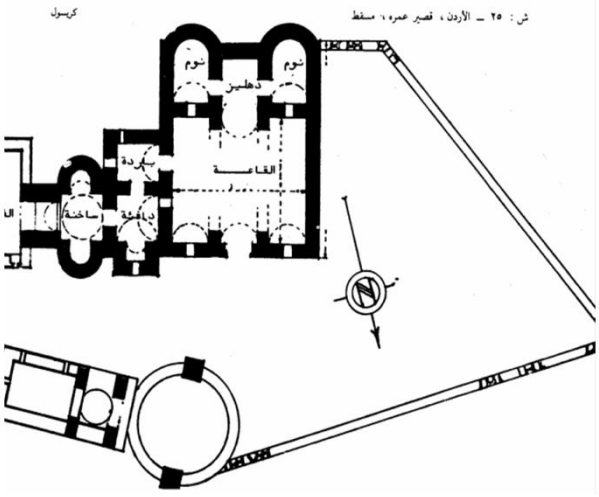

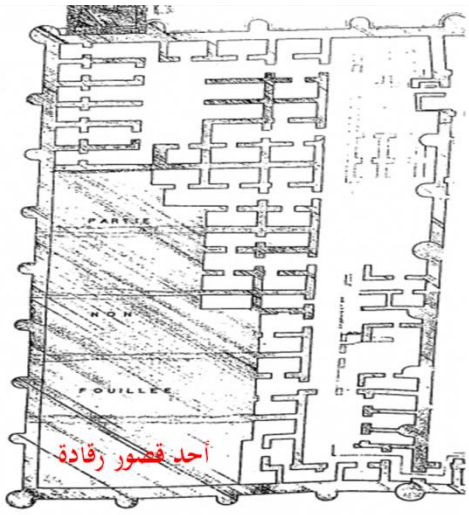

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز لعرج:"إن التخطيط المعماري العام للمسكن الإسلامي يخضع لفكرة واحدة من حيث الأسس العامة والنظام والتركيب في مختلف مناطق العالم الإسلامي، وذلك التشابه يعود لوحدة العقيدة ووحدة الحضارة وثقافة شعوب تلك المناطق، وإلى جانب ذلك يتنوع التعبير المعماري للمسكن فيها وفقا لوظيفته وعدد أفراد الأسرة التي تشغله ودرجة ثراء مالكه وثروته، ولا تختلف في ذلك إلا في التفاصيل".

ويؤيد توفيق حمد عبد الجواد هذه الفكرة في كلامه عن تخطيط المسكن الإسلامي عامة ومساكن مدينة الفسطاط بصفة خاصة، مع إعطاء بعض التفاصيل المعمارية للمنزل، والمتمثلة في المداخل المنكسرة ثم الردهة التي نصل منها إلى الفناء أو الصحن الذي نجد به نافورة وحوض وبعض المغروسات، ويطل على الصحن غرف والتي نجد بها خزائن حائطية للملابس والأدوات، ونجد بهذا

الطابق درج صاعد إلى الطابق الأول والذي نجد به غرف النوم، ومنه نرقى إلى السطح عبر سلم آخر، وقد زيّنت المنازل من الداخل بزخارف جميلة، أما من الخارج فإننا نجد المشربيات تزينها، وفيما عدا هذا فهي واجهات بسيطة ومتشابهة.

وقد ذكر ابن أبي زرع أن مساكن فاس أكثرها بطابقين، ومنها ما هو بثلاث طوابق وأخرى بأربع طوابق، وذكر المرجي الثقفي منازل بثلاثة طوابق، كما ذكر ابن جبير أيضا أن مساكن دمشق بثلاث طوابق بعضها فوق بعض، وهي بهذا تحوي من الخلق ما تحويه ثلاث مدن، لأنها أكثر بلاد الدنيا خلقا، ويضيف ابن أبي زرع في موضع آخر أن الديار بفاس أيام الناصر بلغت 89236 دارا و 19041 مصرية.

أنواع المساكن:

من البديهي أن هذه المساكن في معظمها كان يسكنها أهلها، وهو الأمر الذي تبنى من أجله البيوت أصلا، وقد أكدت كتب النوازل أنه بالإضافة إلى هذا النوع من المنازل، هناك منازل أخرى منها ما استعمل كوقف، ومنها ما كان شركة بين الناس ومنها ما كان يكرى لمن يريد الكراء، ومنها ما حوّل إلى فنادق، بل إن بعض المنازل كان يسكنها بعض الذميين من أهل الكتاب.

نستطيع أن نكوّن فكرة عن المساكن ومرافقها في الفترة القديمة، ويمكن أن نجملها فيما يلي، أولا الأسس وهي التي سيقوم عليها البناء ولدينا الجدران وهي التي تحدد شكل الدار، كما نجد الفضاءات الموجودة فيه، ثم إننا نجد مدخل الدار أو بابها بالإضافة إلى دهليز يؤدي إلى الصحن (والذي كان ذو أهمية كبيرة في المنازل الإسلامية، إذ أن فتحات المنازل إلى الخارج كانت قليلة، كما أن ضيق المسالك يقلل من حاجة المنزل إلى الهواء، لذلك فإن الصحن مهم جدا في عمارة المساكن الإسلامية) وأحيانا وجد بالصحن نافورة ماء وظيفتها تلطيف الجو، كما يمكن أن نجد بعض الأشجار بالإضافة إلى الماجل المخصص لجمع ماء المطر لاستعماله في الغسل وغيره من الأمور الضرورية والذي وجد مكانه في الصحن بحيث يصل إليه المطر عبر قنوات فخارية أو بواسطة الميازيب، يمكن أن نجد قاعة، ومن هذا المستوى نرتقي إلى السطح عبر سُلّم، كما نجد أيضا في الطابق الأرضي البئر وهو عنصر حيوي والذي نجده في جل المنازل.

أما بخصوص البيوت فنجدها في الغالب مستطيلة الشكل وهذا بسبب التسقيف الذي كان بالخشب والذي لا يسمح بجعل عرض البيت كبيرا كي لا يلتوي من جهة كما أنه لا يمكن له أن يحمل الثقل أعلاه، وبهذه الغرف وجدت الكوى وهي عبارة عن نوافذ صغيرة الحجم يكون مكانها في

أعلا الجدار حتى لا تكشف الجيران، كما وجدت أيضا المشكاة وهي تشبه الكوة إلا أنها مسدودة لا تطل على الخارج وتكون مخصصة لوضع المصباح، ويمكن أيضا أن نجد خزانات حائطية لوضع أغراض البيت، وفي الطابق الأرضي أيضا نجد المخزن والذي يكون في الغالب في أحد أركان المسكن، كما نجد المطبخ.

أضف إلى ذلك المرحاض وهو إما يكون مرحاض حفرت له حفرة ليجتمع فيها التفل أو به قناة لتصريف القذر خارج المسكن في قنوات أكبر خصصت لهذا الغرض، الطابق الأول يشبه الطابق الأرضي في بيوت السكن، وقد يمكن أن نجد به حمام صغير حسب حجم المسكن، أما السطح فنجده مائلا قليلا لتسريب مياه الأمطار والتي تُخرج خارج المسكن بواسطة الميزاب أو قناة، أما في الجهة الخارجية فيتصل بجدران الدار من الخارج الأكلب وهي عبارة عن أخشاب خارجة يستعملها صاحب المنزل في إحداث شُرفة أو ما يسمى بالروشن أو الجناح أو العسكر أو مشربية.

كما نجد أيضا السقيفة وهي المكان المسقوف خارج الدار وقد تكون ساباطا، والسقيفة هنا غير الدهليز أو الردهة التي تكون بعد المدخل مباشرة، وتفتح بعض الدور على فناء أو رحبة وهي عبارة عن فراغ أمام الدور مخصص في الغالب للحيوانات، وهي ليست الرواء أو الإصطبل الذي نجد له مكانا داخل المنزل يكون في الغالب أمام المدخل مباشرة، وقد نجد في بعض المنازل أنه ألحق بها حانوت يفتح على الشارع، وفي جهتها الخلفية حديقة نصل إليها أحيانا من باب مفتوح خلف الدار، هذا بصفة عامة أهم العناصر المعمارية الخاصة بالمساكن.

1- دار الرصاع الكبيرة.
2- دار الرصاع القديمة.
3- دار ملولي.
4- دار علي ثابت.
5- دار بوحشام.
6- دار النيفر.
7- دار النيفر.
8- دار قسطالي.
9- دار قسطالي.
10- دار الحضار.
11- فندق العطارين.
12- دار سعيد.
13- دار بوحدرة.

مساكن بتونس

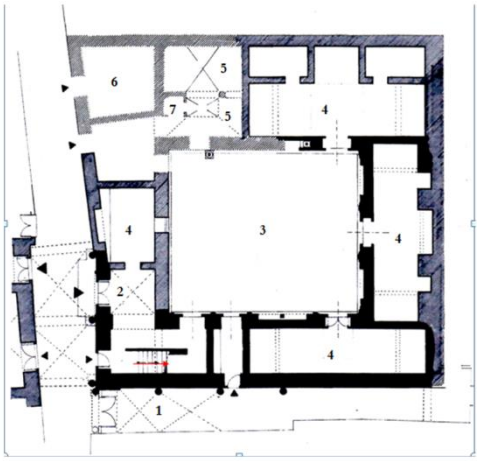

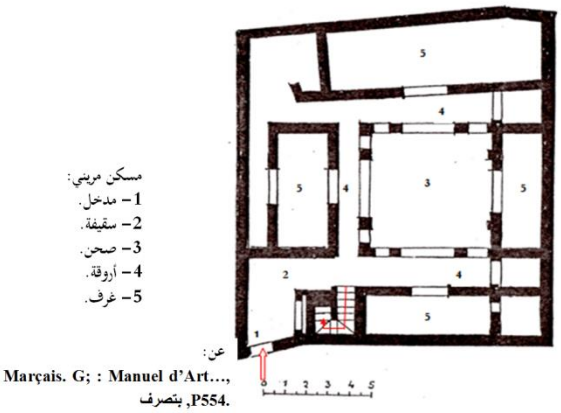

عن:
Marçais. G; : Manuel d'Art…, P554. بتصرف.

الفندق:

يشبه في تخطيطه الخان وهو منزل مؤثث مهيأ للطعام والشراب والنوم يقصده المسافرون من التجار والحجاج والرحالة وغيرهم للإقامة المؤقتة نظير أجر معلوم، وهو أيضا دكان أو حانوت كبير للتجارة، والفندق اصطلاح شاع في شمال إفريقيا وكان يتكون من فناء أوسط تحيط به من جهاته أربع أبنية ذات طابقين خصص الأرضي منها للدواب وكمخزن، بينما خصص العلوي الذي كان يشمل على رواق يدور حول الصحن يفضي إلى غرف لإيواء التجار والمسافرين، وكانت هذه الفنادق في الغالب داخل المدن.

ويسمى الفندق في المشرق بالخان والوكالة والربع وهو كما يعرفه عاصم محمد رزق وتوفيق حمد عبد الجواد عبارة وحدة مباني تطل على فناء داخلي وتتكون من عدة طوابق، الأرضي منها خصص لحفظ بضائع التجار الوافدين أو لعرض السلع التجارية المعدة للبيع أو التبادل بالإضافة إلى أماكن مخصصة للدواب، أما الطوابق العليا فكانت عبارة عن غرف نوم مستقلة ومعدة للنزلاء، من هذا التعريف يظهر التشابه في التخطيط العمراني للخان والوكالة والربع بالفندق وهي كما ذُكر أعلاه اختلاف في التسمية فقط مع إمكانية الاختلاف الشكلي في الحجم وبعض المرافق الملحقة.

وقد انتشرت الفنادق في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا ففي الأندلس مثلا اشتهرت عدة فنادق منها على سبيل المثال فندق غرناطة ذكر حسين مؤنس أنك إذا خرجت من القيسارية إلى الشارع الكبير وجدت في الناحية الأخرى شارعا صغيرا يسمى ماريانا بينيدا فيه فندق-أو خان- الغرناطي المشهور، كان يسمى الفندق الجديد، إنه الوحيد الذي بقي لنا من فنادق الأندلس، هندسته تعطيك فكرة عن نظام فنادقنا القديمة.

تخطيطه: مدخل عربي كبير يليه مدخل أصغر على جانبيه غرفتان صغيرتان، إنهما تقابلان ما يعرف في الفنادق الحديثة بالاستقبال والبواب، هنا كان الداخل يسجل اسمه ويحجز غرفته، كان يسجل أيضا دابته إذا كانت معه دابة، بعد ذلك تجد فناءً واسعا في وسطه حوض، هنا كان النزيل يربط دابته لتشرب، ربما يتولى الخدم أمر طعامها، البناء يقوم حول الفناء على هيئة ثلاث طبقات من الشرفات، أبواب الغرف تفتح على الشرفات، تبدلت الأيام على هذا البناء بعد العرب، استعمل ذات مرة مخزنا للفحم، لهذا يسمى اليوم حظيرة الفحم(كورال دل كاربون)، واستعمل مرة أخرى مسرحا، ومثلت فيه روايات كالدرون ولوب دي فيجا، وهو اليوم ملك للدولة تابع لإدارة قصور الحمراء.

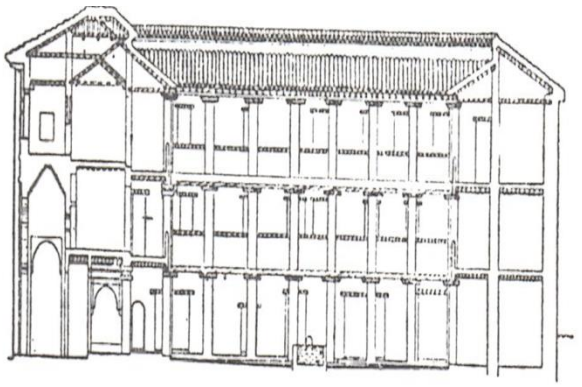

مقطع في فندق غرناطة المعروف اليوم بربع الفحم يبين تصميمه الهندسي

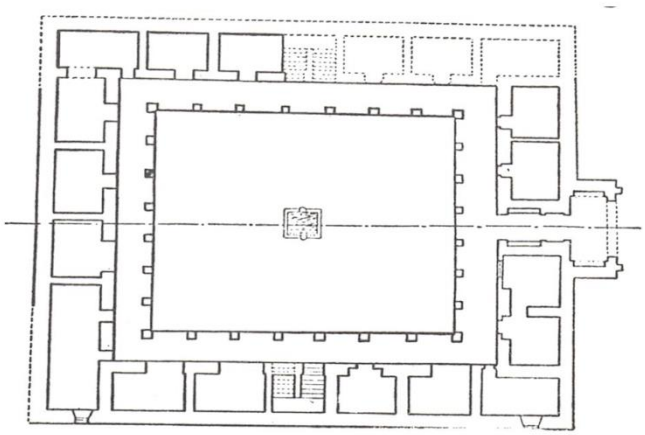

مسقط لفندق غرناطة يبين هيئته العامة . يلاحظ المدخل إلى الفناء يتوسطه مسقى الدواب ، والمبنى قائم حوله ثلاثة أدوار كل منها يتألف من غرف متجاورة تطل على الفناء .

يذكر الدكتور عبد العزيز فيلالي النظام المعماري لفنادق تلمسان والذي لا يخرج عن النظام العام للفنادق؛ حيث يتألف الفندق من طابقين أو ثلاث خصص فيه الدور الأرضي للمخازن والدكاكين والإسطبلات والحمامات والأفران وقاعة لمداولة الأحكام تفتح على أفنية واسعة وتحت أشجارها المياه الجارية، وتوجد في بعض العمارات الحانات الخاصة بالتجار المسيحيين، وتحيط بالفندق مساحات شاسعة داخلية تستعمل لتفريغ البضائع أو حملها حتى يسهل على صاحب الضرائب والمكوس المراقبة، أما الطابق الأول والثاني فقد خصصا للنوم وراحة التجار ويحيط بالفندق سور خارجي عالي سميك الجدران يفصله عن البناءات الأخرى، وله باب يغلق ليلا على التجار.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضا هو أن بعض الفنادق كانت تبنى على مداخل المدن وليست كل الفنادق داخل المدينة، وما يفسر هذه الظاهرة هو بعض السلع الثقيلة والتي تتميز بكبر حجمها والتي

يؤثر نقلها داخل المدينة في حركة المرور في شوارعها، فإنها كانت تخزن في هذا النوع من الفنادق ثم توزع بعد ذلك وتباع على تجار التجزئة ومن ثم توزع داخل السوق.

أما عن نظام الفنادق وتنظيمها فإنه كان لها بوابون يراقبون المرتادين عليها وكانوا في العادة من سكان البلدة المشهورين بالأمانة والصدق، ويحق لهم أن يمنعوا جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم سواء كانوا من أهل المدينة أم الأجانب من دخول الفنادق، بل حتى رجال الشرطة لا يسمح لهم بدخولها وإن كانت لهم قضية مع أحد التجار فعليهم تسوية الأمر مع القنصل الذي يشرف على التجار، وبالرغم من تجاور الفنادق التي كان يقطنها في الغالب تجار مسيحيون من مناطق مختلفة إلا أنه كان محرما عليهم التنقل بين الفندق والآخر، أما غرف الفنادق فمنه ما كان يسكنه القناصل ومنه ما يسكنه التجار واتخذت غرف أخرى كسجن لبعض التجار المخالفين، كما جعلت غرف ثالثة كأندية للسمر.

أما المسؤول الأول على الفندق وعلى تنظيمه فهو موظف يعرف بالفندقي وهو مندوب عن القنصل، هذا ما ذكره عبد العزيز فيلالي على أن الفنادق كانت في الغالب للمسيحيين وسبق قبل قليل أن ذكرنا ذلك، ولكن ما ذهب إليه لا يعول عليه كل التعويل ولعلها تكون حالات قليلة جدا خاصة في العصر الزياني وهذا راجع لعدة أسباب منها أن الحرب التي كانت متواصلة بين تلمسان وبين بني مرين، وأيضا الأعراب الذين كانوا كثيرا ما يقطعون الطريق أمام التجار، فإن وجود تجار مسيحيين ينتقلون بين الموانئ إلى داخل المدن أمر عسير عليهم، ثم كيف يسمح لهم تملك مؤسسات داخل المدينة والحرب مشتعلة بين النصارى والمسلمين في السواحل وداخل المدن خاصة في أخريات القرن التاسع للهجرة، وازدادت شدة في النصف الأول من القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد.

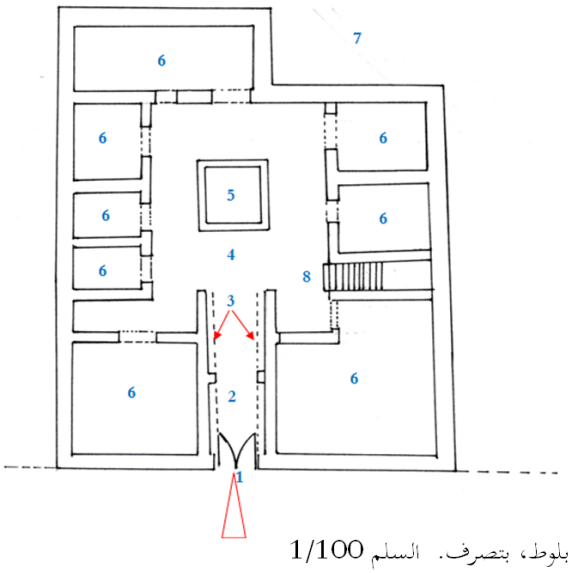

مخطط فندق الرمانة، عن عمر بلوط، بتصرف. السلم 1/100

الحمامات:

لكي نعطي فكرة عن الحمامات العثمانية في الجزائر فإن ما توفر عندنا من المراجع هو وصف لبعض حمامات العاصمة، يقول وليم سبنسر:"لقد بنيت حمامات واسعة من طرف حسن باشا ومحمد بن صالح رايس قائد البحرية الجزائرية الكبير وجهزت بالماء الساخن والبارد، وكانت تضاهي أحسن الحمامات في القسطنطينية".

ومن خلال هذا الوصف يتضح أن حمامات الجزائر في فترة العثمانيين أصبحت على نسق حمامات العاصمة العثمانية بتركيا، وبالتالي فإن النمط المعماري قد انتقل إلى الجزائر، ومما يدل على أن الحمامات في هذه الفترة قد كثرت قول وليم سبنسر نقلا عن نيكولاي Nicolay في وصف الجزائر:" توجد من وراء البلاط الملكي بيوت رائعة تعود ملكيتها للخواص من الرجال وإلى جانبها عدد كبير من الحمامات" ونقل هايدو أنها بلغت الستين حماما، وهذا أمر مسلم به إذ أن بقاء العثمانيين لمدة تجاوزت الثلاثة قرون لا شك وأنه نتج عنه العديد من العمائر العسكرية والدينية والمدنية، ونحاول بعد قليل إعطاء صورة نظرية لما كانت عليه هذه الحمامات.

عمارة الحمامات العثمانية:

هذا بصفة عامة لأهمية الحمامات الاجتماعية والدينية والصحية، أما بالنسبة لعمارتها وهو ما نحن بصدد الكلام عنه هنا، فلدينا وصفين أحدها لكاثكارت الأمريكي الذي كان أسيرا في قصر الداي والآخر لوليام سبنسر الذي قضى مدة في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسين يقول كاثكارت أن حمام قصر الداي يشبه الحمامات الموجودة بالمدينة إلا أنه أصغر حجما منها، والحمامات التركية مبنية على طراز واحد فنجد أولا غرفة صغيرة مؤثثة مخصصة لنزع الملابس، ثم غرفة أخرى دافئة يجلس فيها المستحم حتى يتصبب عرقا ومنها يدخل إلى الغرفة الساخنة أين ينظف جيدا ويدلك ثم يعود أدراجه إلى الغرفة الدافئة ثم إلى القاعة الأولى، وحمام الداي مفروش بالمرمر ومزين بالآجر المستورد من جنوة وتعلوه قبة فيها نوافذ صغيرة وثقوب تسمح بتسرب ضوء النهار والهواء ويضيف قائلا:" بأن جميع الحمامات في هذه الأيالة بل وفي جميع بلاد المغرب بنيت على أساس نفس القواعد والمبادئ وهي كلها مزخرفة بدرجات متفاوتة ".

مقارنة الحمامات العثمانية مع بعض الحمامات السابقة:

فيما يخص **الحمامات المرابطية** لدينا الحمام البالي بمدينة ندرومة بالقرب من مدينة تلمسان بالغرب الجزائري، وحمام الصباغين بتلمسان الذي يغلب على الظن أنه مرابطي من خلال ما ذكره جورج مارسي، فمن خلال مخططيهما نجدهما لم يخرجا عن نظام الحمامات السابقة المتمثلة في الغرف الثلاثة وكذا الملحقات غير أن حمام الصباغين وجدت به سقيفة تسبق الغرفة الباردة.

بالنسبة للتسقيف نجد بحمام البالي الغرفة الباردة مغطاة بأقبية نصف أسطوانية، أما حمام الصباغين استعمل فيه قبة وسطية تحيط بها أقبية نصف أسوانية وهي قبة مثمنة، كما نجد أيضا نافورة ماء وسط هذه القاعة ولعلها محدثة في فترات لاحقة.

وفيما يتعلق بالغرفة الدافئة في حمام ندرومة نجد تسقيفه بقبة وسطية تحيط بها أقبية نصف أسطوانية، أما حمام الصباغين فغرفته مغطاة بقبو نصف أسطواني.

الغرفة الساخنة في كل من الحمامين مغطاة بقبو نصف أسطواني وبهما حوضين أحدهما للماء البارد والآخر للماء الساخن، وحمام ندرومة به غرفة صغيرة إضافية.

الفرن في كلا الحمامين يقع خلف الغرفة الساخنة.

بالنسبة **للحمامات المرينية** لدينا أيضا نموذجين حمام العُباد بتلمسان وحمام الرباط بالمغرب الأقصى، نجد إضافة إلى الغرف الثلاثة المعروفة، سقيفة وغرفة أخرى إضافية تتوسط الغرفة الباردة والغرفة الدافئة، وهي ظاهرة جديدة في عمارة الحمامات المغربية.

أما الغرفة الباردة فهي مغطاة بقبة وسطية تكتنفها أقبية نصف أسطوانية وأخرى متقاطعة.

الغرفة الباردة الثانية تسقيفها نصف أسطواني.

الغرفة الدافئة تسقيفها نصف أسطواني وحمام الرباط به قبة وسطية.

الغرفة الساخنة تسقيفها نصف أسطواني وبها أحواض للماء الحار والبارد.

الفرن يقع خلف الغرفة الساخنة ومعه مخزن أو مكان استقبال مواد الإشعال.

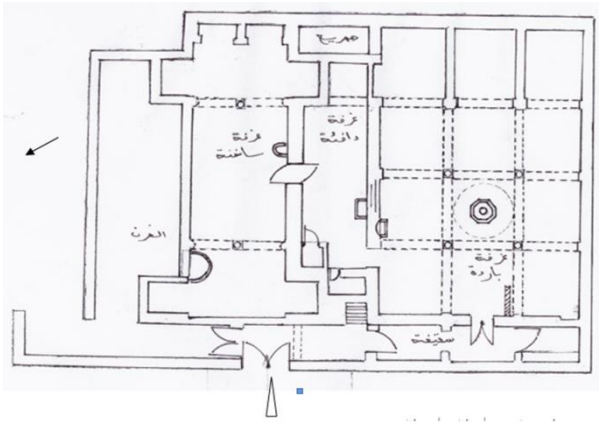

حمام سيدي سليمان بتلمسان
عن: مكتب دراسات.

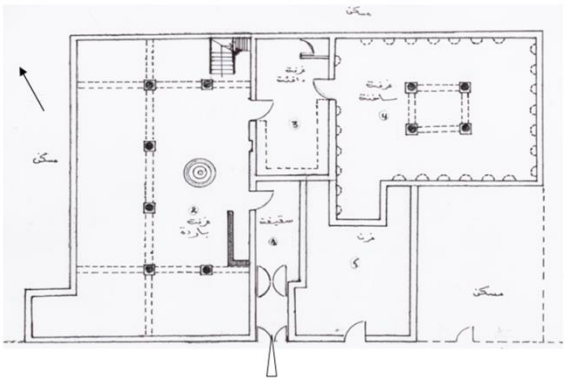

حمام مدينة مليانة من عمل الباحث
السلم 100/1

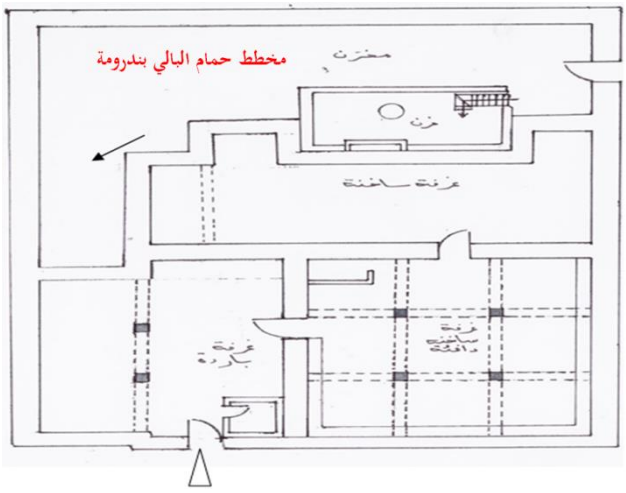

البيمارستانات(المستشفيات):

كلمة فارسية مكونة من شطرين بيمار معناها مريض وستان أي المكان، وغالبا ما تختصر إلى مارستان في المدن العربية، وهو دار الشفاء أو المستشفى الذي انتشر في مختلف بلدان العالم الإسلامي من خوارزم إلى دمشق والقاهرة وتونس وغرناطة وغيرها، يقال بأن أول من بنى المارستان الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي عام 88هـ/707م، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق، ويقال بأن المارستان ظهر بشكل حقيقي في عهد هارون الرشيد العباسي حين كلّف جبرائيل بن بختيشوع بإنشائه في بغداد، ثم انتشرت المارستانات بعد ذلك في العالم الإسلامي خاصة في فترة الحروب الصليبية يقول عاصم محمد رزق ولم تظهر البيمارستانات في المغرب إلا في القرن السادس هجري على

يد السلطان يعقوب المنصور الموحدي (580-595هـ/1184-1199م) الذي بنى أول بيمارستان في مراكش، وانتشرت البيمارستانات بعد ذلك في المغرب.

ولكن يخالفه ما ذكره الدكتور محمد زيتون وغيره حيث يؤكد زيتون على أنها ظهرت في العهد الأغلبي، فقد كان بالقيروان مستشفيات لمعالجة المرضى، وقد أقيم خارج القيروان مستشفى عظيم سمي بالدمنة، كان ذا أقسام وله نظام خاص، ويقال بأن أصل وضعه كان ملجأ كبيرا للفقراء، ثم خصص أيام الأغالبة للمصابين والعجزة، فصار ينقسم إلى قسمين، أحدهما للمجزومين ويعرف بدار الجزماء، والآخر مأوى للعمي الفقراء، يعالجهم به أطباء ماهرون، وكان الأمراء من كل دولة يزورون هذا المعهد الخيري لا سيما في المواسم ويوزعون الأموال والحلويات على المقيمين به، وويوافقه الدكتور محمد بوزغيبة ويذكر على أن الدمنة أول مستشفى بالقيروان، ولما أحدثت مستشفيات أخرى بتونس وسوسة وصفاقس عرفت كلها باسم الدمنة.

وكانت مخططات البيمارستانات بشكل عام مثل مخططات المدارس تتكون من صحن وإيوانات وتلحق بها حمامات للرجال والنساء، وقاعات متعددة الاستعمالات، ومصلى وبعض المرافق الأخرى، ويتم التطبيب والمعالجة فيها بالمجان لكل الناس، كما يتم صرف الرواتب النقدية والجرايات العينية للعاملين فيها من مداخيل الأوقاف المختلفة المخصصة لها، وقد يلحق بالبيمارستانات الكبيرة منها طلاب يتدربون على أيدي أطباء متخصصين يلقون عليهم الدروس النظرية ويعلمونهم الممارسة التطبيقية والعملية.

والدمنة كانت بناية في شكل مربع الأضلاع أو مستطيل، بها باب كبير وسقيفة طويلة، وعلى طول السقيفة مصطبتان يجلس عليها العواد عند زيارتهم للمرضى، وفي آخر السقيفة باب ثان يفضي إلى صحن غير مسقف، ثم عدة حجرات معدة لإيواء المرضى، وفي وسط الرواق المواجه للمدخل مكان مسجد صغير، كما يوجد بالدمنة حمام، وماجل تتجمع فيه مياه المطر، ووجود هذه المواجل أو الصهاريج سنة مألوفة في الأبنية الإفريقية.